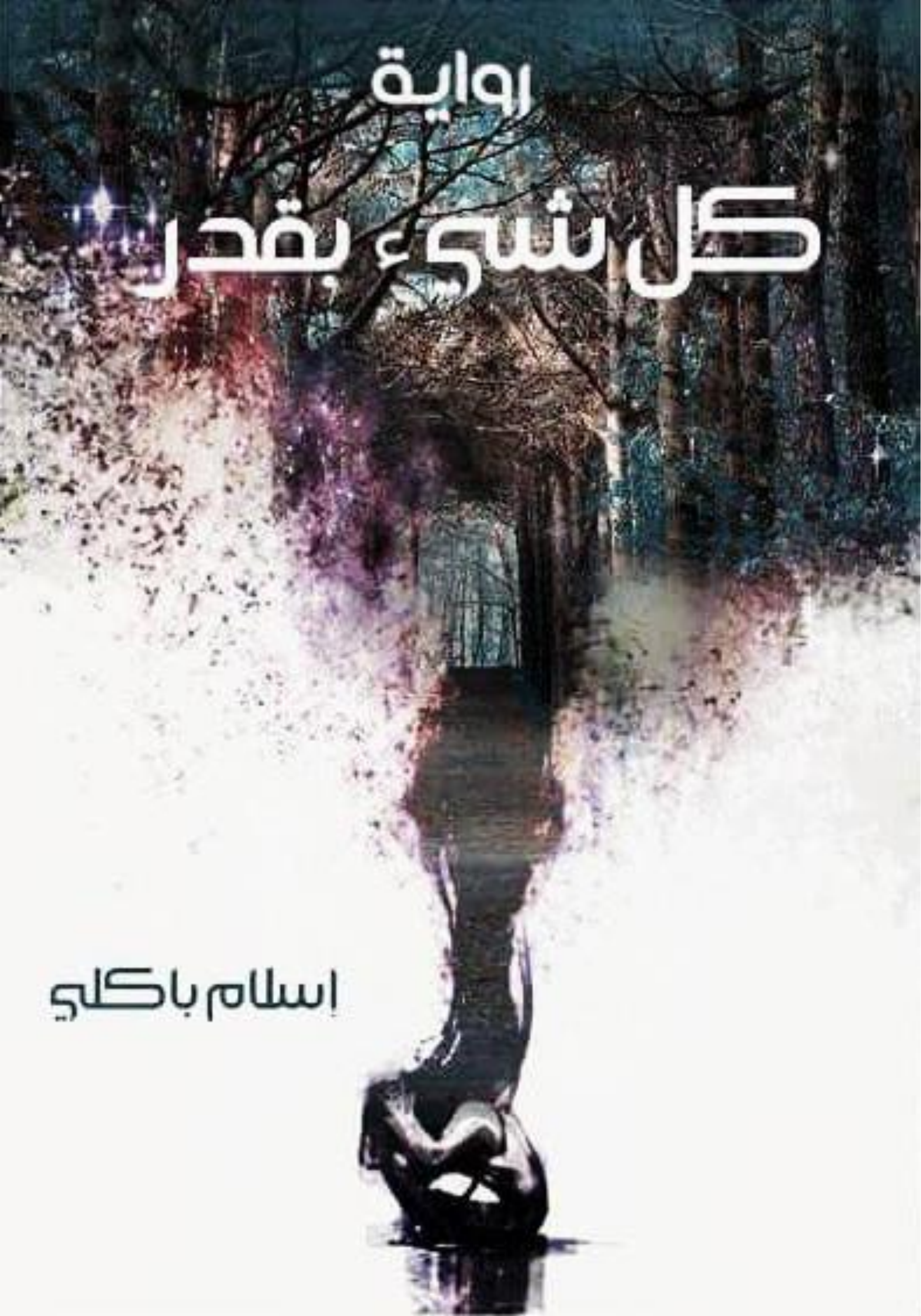

رواية
كل شيء بقدر
إسلام باكلي

إسلام باكلي

كلّ شيء بقدر

رواية

الطبعة الأولى

السداسي الأول 2017 م – 1438 هـ

ردمك : 978-9931-615-79-8

العنوان: رقم 11 شارع الاستقلال – باتنة - الجزائر

هاتف: 86 73 49 675 213+ فاكس: 49 20 85 033

البريد الإلكتروني: Elmouthakaf2@gmail.com

إهداء

إلى كلّ روح سكنتها الوحدة وعاشت فيها وجعا...

"يا غلام، إنّي أعلّمك كلمات. احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده تّجاهك. إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك. ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفّت الصّحف."

- حديث شريف -

" لو خرجت المرأة مع كلّ الرّجال، ولم يقدّر الله لها الزّواج...لما تزوّجت، ولو كانت تسكن داخل خيمة في صحراء قاحلة لم يحطّ فيها البشر رحالاً غيرها، وقدّر الله لها الزّواج، لجاء ابن الحلال يطلب يدها، كان يظنّ أنّه ضائع في الصّحراء، ولكنّ الله لم يضيعه بل كان يقتاده إلى قدره..."

- إسلام باكلي -

الفصل الأول

ذكريات، ليس الموت ما يقتل الإنسان، بل الذّكريات؛ الإنسان الّذي يعيش كفايةً ليحمل عبء الحياة يموت بوقت طويل قبل أن يتوقّف قلبه. لطالما أرعبني الموت، تلك اللحظات الأخيرة الّتي تبحث جاهدا فيها عن نفسٍ واحدٍ ولكنّك لا تقدر عليه، تبدأ أعضاؤك بالفشل الواحد تلو الآخر إلى أن يتوقّف جسدك عن العمل نهائيا ويخيّم الظّلام، تلك اللحظة الّتي تدرك فيها أنّك على مشارف النّهاية ولا تدري ما المصير، إمّا الجنة وإمّا النّار، تلك اللحظة الأخيرة قبل فقدانك لحاسة السّمع، تسمع فيها أصوات السّيارات، والنّاس، وكلّ ما حولك، وهناك تدرك أنّ الحياة لا تتوقّف لأحد، تدرك أنّك سُرعان ما ستُنسى، ولن تبقى حتّى مجرّد ذكرى، وكلّ ما ستحسّ به هو الخوف لأنّك كنت تعيش في غفلة، وكلّ ما ستشعر به هو الوحدة.

- حسنا..أنا خارج، حاولا أن لا تهدما المنزل إلى حين عودتي - قلت هذا وأنا أربط فردة حذائي الأيسر أمام الباب -

- إلى أين؟- سألني أبي من غرفته -

- كنت أفكّر في أن أذهب لأرى بعض الحسناوات، هل تأتي معي؟

- طبعًا..طبعًا، وهل كنت ستتركني هنا!؟ دعني أرتدي ملابسي -أجابني بنبرة عالية قليلا ليتأكّد من سماع أمّي لجوابه -

- آدم!!!- صرخت أمّي وهي تخطو نحونا من المطبخ بخطوات ثقيلة وأكملت:-

- أنت طريح الفراش وتفكّر في النّساء!!

- هذا لأنّني لم أكن يوما مع واحدة!

- وماذا أكون أنا؟

- وحش الغابة؟ غول؟ كابوس؟

توجّهت أمّي ناحية السّرير حاملةً ملعقةَ الطّبخ فوق رأسها، فأمسكتُها بسرعة وطبعت على جبينها قبلة وقلت لها:

- أنا أعزب، ولست طريح الفراش، فهل يمكنني أن أفكّر في النّساء؟

- هل تريد الزّواج؟

- ومن لا يريد؟"أجبتها"

- أنا -أجاب أبي، رغم أنّ أمّي عبست في وجهه وهدّدته بالملعقة إلّا أنّني ضحكت، لم أستطع كتمها -

- قالت أمّي: سأختار لك زوجة

نظرتُ إليها مُستغربا في صمت، ثمّ استدرتُ ناحية أبي وتوجّهت إليه.

- تنحّ جانبا، أنا مريض أيضا

ضحك أبي وتركني أستلقي بجانبه تحت اللحاف وأنا بحذائي.

- ماذا؟ ما خطب الفتاة الّتي سأختارها لك؟

- هل هي فرد من جهة عائلتك؟ - سأل أبي -

- نعم

- وتلك هي الإجابة عن سؤالك

- وما خطب عائلتي؟!!

أشار أبي بيديه إلى كلّ جسمه الهزيل الطريح في الفراش من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه وقال:

- هذا هو الخطب، هكذا ستكون النّتيجة..ابني؟ انج بحياتك، أركض...

لا أنكر أنّني ضحكت بشدّة، أمّي تظاهرت بالغضب واقتربت من السّرير فأمسكها أبي وأقعدها على حافة السّرير، ثمّ قبّلها على جبينها وهمس لها:

- دنيا وجنّة.

ابتسمتْ أمّي واحتّضنته، كنت أعلم أنَّ وراء تلك الكلمتين قصّة، فهو يقولهما لها في كلّ فرصة، كلّ شجار، كلّ مزاح، بل وحتى كلّ ليلة قبل أن يخلدا للنّوم. رغم أنّني كنت شديد التّوق لمعرفة السّر إلّا أنّني كنت مُحرجا من أن تكون في القصّة تفاصيل لا يجب على الابن سماعها من والديه،إن كنتم تفهمون ما أعني!

- ابني، أنت تبحث عن عمل كلّ يوم منذ أن أنهيت الجامعة قبل سبعة أشهر، لما لا تأخذ هذا اليوم راحة، تتجوّل مع أصدقائك وتغيّر الجوّ؟

سؤاله لم يكن مجرّد طلب عادي، فهو يطلب منّي هذا كلّ يوم، وجوابي كالمعتاد، ابتسم وأقول:

- كان ذلك ليكون رائعا، لو كان لديّ أصدقاء

- إذن أخرج وجِد بعضا منهم

- تقول هذا ببساطة شديدة كأنّني سأخرج وأجد متجرا لبيع الأصدقاء

- لا زلت لا أفهم كيف لا تكسب أصدقاء وأنت مثالي، دائم الابتسامة...ولديك ابتسامة جميلة "تدخّلت أمّي"

- أنت تقولين هذا لأنّني ابنك، عدا الجزء الخاص بالابتسامة الجميلة فأنا أعرف ذلك...بكلّ تواضع.."قلتها كمزحة ثمّ أكملت حديثي:

- بالإضافة، كلّ ما يفعلونه هو التسكّع، الكذب، ملاحقة الفتيات، سوء الكلام، الشّجار، الغيبة وقذف النّاس، ليس بالإشاعات فقط..بل قذفهم بالأشياء أيضا. أتذكران الشّتاء الماضي عندما أثلجت بقوّة؟ لقد صعدوا فوق سطوح العمارات وصنعوا كرات ثلجية بالحجارة والزّجاج داخلها، ثمّ رموها على النّاس. أنتما علّمتماني شيئا لم يتعلّموه هم من أوليائهم

- وما هو؟ "سألني أبي"

قمتُ من السّرير ثمّ قبّلتهما كلاهما على رأسيهما وأجبته بينما كنت أخطو خارجا:

- علّمتماني حسن الخُلق، هناك رائحة شيء ما يحترق في المطبخ.

لم يكن صعبا بالنّسبة إليّ الابتسامة في أصعب الأوقات، لم يكن صعبا عليّ أن أكون خفيف الظّل وبداخلي ثقلٌ لا أقوى على حمله، يقولون عنّي أنّني من أولئك الّذين يواجهون الحياة بابتسامة، ولكنّني لست كذلك، في الحقيقة كنت أزيّفها، ليس لأجلي، بل لوالديَّ،

صعب عليّ أن أرى أبي في أرذل العمر طريح الفراش لا ينام ليله من شدّة الألم، ولا ينام نهاره خوفا من النّدم، صعبٌ عليَّ أن أرى أمّي في مثل سنّه مريضة أنهكها التّعب ولكنّها لا تزال تطبخ وتغسل وتنظّف، صعبٌ عليّ أن أكون وحيدا غريبا فقط لأنّني أعيش وسط مجتمع لا يعرف كيف يكون مُسلماً، بكلّ صدق، هذا صعب عليَّ، فإن كان كلّ ما أستطيع تقديمه لوالديَّ هو ابتسامتي، فلن أبخلهما بذلك مهما كنت أصرخ وأتألّم بداخلي!

* * * * * * *

يعتقد النّاس أنّني سجينة، لا أخرج من غرفتي إلّا أحيانا، ولا أخرج من منزلي أبدا. تركت الهواتف والحواسيب ولجأت إلى الكتب كوسيلتي الوحيدة للاتّصال بالعالم الخارجي.

كلام النّاس لا ينتهي، كلامهم لا يرحم، قالوا أنَّ والدي الشّيخ الكبير حبسني في المنزل بعد أن فقدتُ عذريتي في سنّ الخامسة عشر. مضتْ سبع سنين والقصص لا تزال تُروى عنّي..

"أنابيس، الفتاة المنقّبة ابنة الشّيخ السّلفي المُلتزم عبد الله، زانية، عاهرة، منافقة، مثلها مثل كلّ المنقبات"

لم يؤلمني كلامهم عنّي أكثر ممّا آلمتني محاولاتهم لتشويه صورة المنقّبات العفيفات بي أنا، حاول أبي أن يقنعهم بالحقيقة لكنّهم كانوا

دوما غير ذوو إعجاب بي، ببساطة، لأنّني قبائلية جميلة ذات عيون زرقاء واخترت النّقاب على التّعري.

خسرتُ صديقاتي، خسرتُ شرفي، ودنّسوا شرف أبي وعائلتي، كل هذا بملايين الكذبات والقصص، ولكنّهم لم يرضوا تصديق الحقيقة الوحيدة، لأنّ الحقيقة، الحقيقة المؤلمة، هي أنّني اُغتُصِبت.

أبي لم يحبسني لأنّه يعلم الحقيقة ولا يمكن لأبي أن يظلمني ولا أن يمسّني بأذى، أنا حبست نفسي، كنت أظنّ أنّني أحميها، ولكن مع الوقت تصاعدَ خوفي من العالم الخارجيّ إلى أن أصبحتُ لا أطيق فكرة الخروج.

هذه الغرفة المليئة بالكتب هي ملجئي، وأبي، الشّيخ الحنون يحضر لي هذه الكتب سواءً طلبتُها أم لا، لأنّه يعلم أنّني أتألّم، فعلًا، كلام النّاس لا يرحم.

قد يتساءل الإنسان لمَ أيّ شخص يغتصب منقّبة وهو مُحاط بمجموعة من الكاسيات العاريات صاحبات اللباس الضّيق والرّوائح الجاذبة لمثلهم، والإجابة هي أنَّ اغتصابي كان مكيدة.

في سنّ الخامسة عشر، بعد شهر من الحادثة بالتّحديد، جاءتني زميلتي من المدرسة لرؤيتي في المنزل، كنتُ قد تركت المدرسة بأسبوع بعد الحادثة، لأنّني لم أستطع تحمّل نظراتهم ولا كلامهم، وهنا في غرفتي هذه بالذّات، أخبرتني زميلتي تلك بالحقيقة المَخفيَّة حول اغتصابي.

- أنابيس، أعلم أنّنا لا نحب بعضنا

- أنت لا تحبينني، أما أنا فلا أكره أحدا

- حسنا..هل يستطيع أحد سماعنا؟

- لا

أجبتها دون اهتمام وأنا أطالع كتابي دون حتّى نظرة واحدة إليها. إيناس فتاة متحرّرة كما يقولون. لم أؤمن يوما بهذا المصطلح لأنّه في قاموسي للتحرّر، أنا المتحرّرة، حرّة في اختلافي عن فتياتٍ تشبّهن بغيرهن، صحيح، إيناس كانت تكرهني، تُحرّض الفتيات عليّ، تسخر منّي، تتكلّم بالإشاعات عنّي وتحاول دوما خلق شجار معي لضربي، ولكنّني لم أنزل يوما لمستواها، لم أعرف سبب حقدها عليّ، ولم آبه يوما ولكن ما صارحتني به ذلك اليوم، نقلها إلى مستوى جديد من الانحطاط..

- أنابيس، مهما حاولتُ أن أنكر هذا إلّا أنّني دائما أدرك نفس الشّيء، عن سبب كرهي لك، حقدي عليك، عدم تحملي لك..

- أنت تدركين أنّك تكلّمين فتاة تعرضت للاغتصاب، وتركت المدرسة، وخسرت كلّ من كان قريبا لها، صحيح؟! لأنّ طريقة عزائك لي لا تُشعرني بأيّ تحسن!

لم تلبث لحظات إلى أن بدأتُ أسمع صوت بكائها، لم أرها يوما تبكي! دائما تضحك وسط النّاس كأنّها تملك العالم ومفاتيح السّعادة بين يديها. في الحقيقة، لم أعتقد أنَّ لديها قنوات للدموع في عينيها! أربكني

الأمر للحظة وفكرتُ فيما قلت لها لعلّ كلامي كان سببا في جرحها ولكنّني لم أجد، فلم يبق لي أن أفعل سوى أنّني قمتُ من فراشي واحتضنتها، فقالت لي بصوت متقطع:

- دعيني أكمل لك حديثي، ثمّ لك الحرّية فيما تريدين فعله، حتّى وإن طردتني

لا أنكر أنني بدأتُ بالبكاءِ أيضا، فأنا حسّاسة بطبعي، وصدّقوا أو لا تصدّقوا, لقد ورثت هذا عن أبي.

- الحقيقة هي أنّني كنتُ أغار منك

جلستْ على حافّة السّرير ويديها على وجهها المحمرّ المبللّ ثمّ أكملت:

- كنت أغار منك بشدّة، رغم أنّك منقّبة إلّا أنَّ عيناك أظهرتا أنَّ ما خفي من جمالك أعظم. عشِقَك الجميع، حتّى أمّي! حاولتُ أن أصبح مثلك لكنّني لم أستطع، لم أفهم الأمر، كنتِ دائما سعيدةً مع أنّك دوما وحيدة! تأخذين أعلى الدّرجات وتنجحين في المراتب الأولى!...تحوّلت غيرتي لحقد، وحقدي لكره، والكره زاد من بشاعتي، فكرهي لك أصبح سببا في كره نفسي. لم أستطع النّظر في المرآة دون أن تمرّ صورتك بين عينيَّ، فأرى نفسي بشعة مهما ارتديت، وأزداد تعاسة كلّما رأيتك مهما ضحكتُ أو ابتسمتُ، كنت أموت داخلي، أموت داخل جسدي، لم أعد أحسّ بنفسي، وكلّ ما أحسّ به هو الشّر بداخلي، تكلّمت عنك بالسّوء، سخرت منك، بل سخرت حتّى من النّقاب ومن ديني، من

إسلامي..أردتُّ التّغير، أردت أن أقترب منك، أن أترك كلّ ذلك ورائي، أن أصبح مثلك..ثمّ...ثمّ..

انفجرت بالبكاء، ووضعت يدي حولها وقرّبتها لصدري وهمست لها بلطف:

- لا بأس عزيزتي، تلك لم تكن أنت، طالما أنّك أردت التغيير، يعني أنّه لا زال في قلبك ضمير. لستُ الوحيدة، وأنا لم أكن يوما وحيدة، الله معي.

- أنا سبب اغتصابك

صرخت بها فجأة كأنّ الكلمات انفجرت منها رغما عن لسانها، قفزتْ يدي من مكانها، وأبعدتُها عنّي...

- ماذا؟!

- أنا، حبيبي بيتّا، بيتّا الّذي اكتسبت الذّنوب باسم الحبّ لأجله، بيتّا الّذي ارتديت ما يعجبه، اهتممت به فقط، لا بشرفي ولا بسمعة أبي ولا بقبري ولا بحسابي، فقط هو، كنت دائما ما أشتمك عندما يكون معي خوفا من أن يتوجّه بالنّظرات إليك ولكن زاد كلامي عنك من فضوله، وتحرّى عنك وعن عائلتك ثمّ فجأة...قرّر خطبتك وانفصل عنّي...بعد كلّ ما قمت به لأجله..ما فعلته معه، ما ضحيت به لأجله...فغضبت منك وأردت أن أثبت له أنّك لست الفتاة الكاملة الّتي تظهرين بصورتها، أردت تحقيق ذلك بأيّة وسيلة...

لم أدرك ما يجري حولي، كلماتها تضرب رأسي كأنّها ضربات مطرقة.أحسست بالغثيان والدّوار. ثبّتُ رأسي بكلتا يديَّ لأوقف الغرفة من الدّوران حولي...

- دفعت المال لشخص عرفته عن طريق الانترنيت، دفعت له مبلغا كبيرا بعد أن سرقتُ حليّ جدّتي وبِعته. أخبرته عنك..أردتُ منه أن يتبعك بعد المدرسة ويجبرك على أخذ صورٍ معه بأيّة طريقة، أطلعتهُ على القرية، وعلى الطّريق الّتي تسلكينها للعودة من المدرسة إلى المنزل. أردتُ تلك الصّور لأُريها لبيتّا، فقط ليَعدل عن رأيه عنك، لكن ذلك المتوحّش تمادى بالأمر واغتصبك بعنف، وكان فخورا بعمله بشدّة لدرجة أنّه أرسل صُورك لي وأنت..في حالتك تلك. خفتُ في البداية ولكن لم يكن لدي صورٌ غيرها، فأريتُ بيتّا الصّور فعدل عن رأيه، وأخبر الجميع أنّك زانية ثمّ خانني مع فتاة أصغر منّي في الصّف الأوّل...

لم أنظر إليها، ولكنّني أحسست أنّها كانت تنظر إلي، لم أستطع تحريك جسدي، أحسست أنّني إن حركت عضلة واحدة، فسأتقيأ بالتّأكيد.

- لم آتي هنا لأطلب منك المغفرة، فأنا لا أستحقها ولكن..

وفي تلك اللحظة، أغمي علي، كل ما تذكرته بعد ذلك هو أنّي استيقظت في المستشفى؛ أبي كان يبكي ولكنّه يبتسم لي ويسأل عن حالي، أمّي كانت صامتة ولم ترفع رأسها حتّى، هناك استشعرت وجود خطب ما، وبعدها أخبروني بأنّي حامل. أبي كان يهدّأ من روعي ويقول

مرارا وتكرار "أصبري، أصبري، سيُفرج الله". كنتُ أعرف أبي..كان دوما يقوم بهذا عندما يكون خائفا، ولديه كلّ الحق ليكون، فلا أحد يريد الزّواج بفتاة عزباء لها طفل. قبلتُ رأسه وابتسمت، وقلت له:
"قدر الله وما شاء فعل".

رُزقت بطفلة، وهي الآن في السّابعة من عمرها، مختلفةٌ جدّا، وتُشبهني في كلّ شيء إلى حدّ كبير كأنّها نسخةٌ مصغّرةٌ عنّي، تربَّت بين هذه الجدران على يدي أنا وأبي وأمّي، وأنبتها الله على خُلُقٍ حسن وجعلها كنسمة هواءٍ منعشةٍ في عزّ الصّيف لنا. هيَّ الآن مصدر سعادتنا وسرُّ تماسكنا وصبرنا.

إيناس..بالطبع سامحتُ إيناس، سامحتها منذ أن وضعوا رضيعتي بين يدي، كما أنّه من ستر مؤمنا ستره الله يوم القيامة، ولكنّني جعلتها تعدني بأن تتغيّر ووعدتني أنّ المرّة التّالية الّتي سأراها فيها، ستكون فيها إنسانة مختلفة..لم أرها لحدّ الآن.

ابنتي أسميتها "قدر"، لأنّني آمنت بشدّة أنّ الله يبتليني، وكان هذا قدره..كانت هي. آمنتُ أنّ الأفضل قادم وأنّ لكلّ شيء يحدث سببا..أنّ ربّي خلقَ كلّ شيء بقدر، وما دمتُ مؤمنة به لا أعصيه، فالله لن يُؤذيني أبدا. آمنت بأنّ كلّ ما حصل لي له غايةٌ محدّدة، كلّ ما حصل لي هو رعاية منه، بدايةً بأنّه أبعد "بيتا" عنّي.

"قدر"، كما سبق وذكرت، مختلفةٌ جدّا، لم تعذّبني يوما، لم تُتعبني خلال نموّها، لم تبك ليلها، لم ترفض أكلها..ربّما إن احتسبنا

تغيير الحفّاظات عذابا، ولكن ذلك العذاب كان من نصيب أمّي، أنا نجوت. كانت صديقتي، بالرّغم من صغر سنّها إلّا أنّها كانت تؤنّسني، قليلة الكلام والمطالب، كثيرة المشاعر والحياء، كانت مثلي..كأنّني أنجبتها وحدي.

كل ليلةٍ تأتيني وتستلقي بجنبي على السّرير وتضعُ وجهها النّاعم المُخدّد على ذراعي بينما أنا أقرأ سرّا، فأرفع صوتي قليلا بما يكفي لها لتسمعني ثمّ لا أدرك الأمر حتّى أراها نائمة في حضني بسلام. لم أشعر يوما وهي جنبي بالكره أو التّعاسة أو الإحباط. أحيانا، بعد أن تنام، كنت أغلق كتابي وأبقى أحدّق فيها وأراقبها وهي نائمة، تلك الأنفسُ النّاعمة الطّاهرة الّتي تخرج من تلك الشّفتين الورديّتين وذلك الأنف الصّغير، وشعرها الطّويل يغطّي معظمَ وجهها، لا شيء غير السّعادة أشعر بها في تلك اللحظات، لا شيء غير الأمل، هي نعمة أحمد الله عليها للأبد، وحتّى "الأبد" لن يكون كافيا لنعمة مثلها.

الفصل الثاني

لم تكن صعبة عليّ الوحدة بقدر ما كان صعبا عليّ أن أكون وسط أناسٍ لم يشعروني بغير الكره من غير سبب، كلّما أخرج من منزلي أواجه نظرات الحقد، الشّتائم، الشّجار، أذكر كيف كنت أُدَرّس كلّ واحد منهم في صغرهم. كيف كان آباؤهم يطرقون عليّ الباب في أنصاف الليالي طالبين منّي أن أساعدهم في امتحانٍ أو واجبٍ أو شرح، وبابي كان مفتوحا دوما لهم، والآن، لا هم ولا آبائهم يطيقونني، لا تفهموني خطأ، أنا لا أندم على مساعدتهم، ولا أتفاخر بها أيضا، ولكن الأمر فقط..مؤلم.

"سراج الدين، إلى أين أنت ذاهب في هذا الحر؟"

سألني جاري "عبد الغني"، هو شيخ كبير متشرّد في حيّنا، مثله مثلي، الجميع يكرهه ولا أحد يحيّيه أو يردّ عليه التّحية، إلّا أنّ وراء كُرههم له قصّة، فهو كان سكّيرا مُقامرا، في مرحلة ما، خسر كلّ شيء، من وظيفته ومنزله إلى عائلته، زوجته، رغم كبر سنّها، ذهبت إلى بيت أختها لتبقى معها، وأبناؤه تفرّقوا كلّ واحد منهم في جهة، لم يسمع عنهم خبرًا منذ سنين ولكنّه دوما يحكي لي عنهم وعن قصص طفولتهم، كان واضحا أنّه يشتاق إليهم، أخبرني أنّه قد أقلع عن الخمر والقمار، ويبدو أنّني الوحيد الّذي أصدّقه.

- كالعادة عمّي عبد الغني، أبحث عن عمل. - أجبته بابتسامة -

- لقد بحثتَ في المدينة بأسرها، ألم تتعب بعد؟

- أفضل من البقاء داخل المنزل

- تعال وأعِدْ صينيّة الفطور للمنزل وأشكر أمّك بدلا عنّي

- دعها عمّي عبد الغني، سآخذها لاحقا مع صينيّة الغداء عندما أحضر لك العشاء الليلة.

- حسنا ابني، انتبه على نفسك وابق بعيدا عن الحر

منزلنا واسع، لكنّه غير مفصّل، بحيث أنا نفسي أنام في الرّواق، ولو كان لنا غرفٌ إضافيّة لأسكنّاه معنا، بدل ذلك، تكفّلنا بأكله وملابسه وفراشه، كان محقّا، لقد بحثت في المدينة كلّها عن عمل ولم أجد، ولقد تعبت. كان أملي الوحيد هو البحث عن عملٍ خارج المدينة ولكنّني لا أستطيع ترك والدايَ لوحدهما، منذ ثلاثة أشهر وجدت نشرة إعلانيّة رمتها الرّياح في وجهي عن تكوينٍ مهنيٍ في صالة بناء الأجسام. بما أنّني نحيف وكنت سأدخل للصالة على أيّة حال، انضممت للتّكوين على أمل أن أحصل على عمل وفرصة للتدريب كذلك، أن أضرب عصفورين بحجر واحد. واليوم هو يوم استلامي للشّهادة. لم يكن أمرا يستحق الفخر أو السّعادة، ولكنّه أفضل شيء حقّقته بعد تخرّجي من الجامعة، كما أنّه منحني شعورا مزيّفا بأنّني نوعا ما أفعل شيئا بحياتي لمدّة ثلاثة أشهر، ولقد أعجبني ذلك الشعور.

الأمر المُثير للتّعجب هو أنّه عندما تكون في الثّانوية أو المدرسة، لا تهتم كثيرا بالمستقبل لأنّ دائما كان هناك عام قادم آخر من الدراسة، أمّا الجامعة، عندما تبلغ العام النّهائي وحالما تدرك أنّه بعد هذا لا توجد دراسة، تصدمك الحياة بقوّة، وكلّ ما يمكنك فعله هو عدُّ الأيّام وترديد " اللهمّ استر".

عندما تنتهي الجامعة تحسّ كأنّك طُردت كمن يطرد كلبا بطريقة لطيفة، يُخرجك من الباب، يرمي لك عظمة (الشّهادة) ويقول "اذهب والتقط يا فتى" ثمّ يغلق الباب وتجد نفسك في الشّارع..تستيقظ على الواقع.

أخذت شهادتي، رأيتهم جميعا سعداء، ضحكاتهم حقيقيّة وتساءلت داخلي إن كان فيهم من ابتسامته مجرّد ستار مثلي، سمعتُ شابّيْن من أصحاب الأجسام الحديديّة الضّخمة يتكلّمان عن فتح صالتهم الخاصة، أكادُ أقسم أنّ ذراع أحدهم تزن ضعف وزني، لكن أجسامهم المثالية أفسدتها أخلاقهم القذرة، أحدهما يبصق على الأرض كلّما مرّ به أحدٌ كإثباتٍ لقوّته بصمت المارين، والآخر لا يتكلّم جملةً واحدة دون أن يضيف إليها شتيمة أو سباب.

جلستُ جانبا على كرسي مهترئ مليء بالشّريط اللاصق، كان هذا من ميزات كوني نحيفا، لن ينكسر بي أبدا.

"هل يمكنني أن أجلس؟"

سألتني فتاة تحمل نفس شهادتي في يدها، لا أستطيع أن أصف جسدها، ولكن أستطيع أن أصف الرّؤية بعد أن وقفت أمام وجهي بكلمة واحدة..منعدمة!

- طبعا. -أجبتها بينما هممتُ أنا بالوقوف-

- لا، لا تذهب، أنا أحتمل الرّفقة

- الكرسي لن يحتملها.- قلت في نفسي ثم توجهت بالكلام إليها-

- لا بأس، كنت على وشك المغادرة على أيّة حال.

- ألن تبقى للحفلة؟

- أيّة حفلة؟

- حفلة تخرّجنا، سيكون هناك موسيقى وحلويات

- بقدر ما أحب الجزء الأخير المتعلّق بالحلوى إلّا أنّني أكره الجزء الأول أكثر.

أدرت ظهري للرّحيل

- هل يمكنني الحصول على رقم هاتفك؟ - قالت لي بصوت خافت -

لا أنكر أنّني أجد نفسي في مثل هذه المواقف كثيرا على الرغم من نحافتي، ربّما بسبب ابتسامتي الدائمة. في الماضي كان الأمر يعجبني ولكن بعد أن تغيّرت وتبت لله، أصبح الأمر محرجا قليلا.

- لماذا أنت صامت؟

- دون سبب، كنت أتساءل فقط

- تتساءل لماذا أريد رقم هاتفك؟

- لا، ذاك واضح. أتساءل كيف لاحظتني في هذا الكرسيّ الصّغير في الخلف بين كلّ هذه الجدران البشرية.

- لقد لاحظتك قبل ذلك، في اليوم الأول، كلهم كانوا يتكلّمون عن العضلات ويتفاخرون بها ويتحرّشون بنا، بينما أنت كنت تقرأ كتابا في الخلف بعيدا عنهم، صحيح كانوا هم أكبر حجما ولكنّك نوعا ما كنت أنت تبدو أكثر نُضجا، وهذا غريب مع وجهك الصبياني هذا

- دفاعا عن نفسي، لقد كنت في الخلف لأنّه لم تكن لديّ أدنى فكرة عمّا يتحدّثون فيه، وذلك الكتاب كان رائعا!

ضحكت قليلا ثمّ وضعت يديها تحت المقعد، سكتت قليلا ثمّ قالت:

- أنت لن تعطيني رقم هاتفك، أليس كذلك؟

- لا

رأيتُ صديقاتها يراقبنها من بعيد

- هل لديك حبيبة؟

- لا، لكن في الحقيقة، رغم أنّه لا يظهر علي، أنا أقرب للسلفيّ أكثر مما أنا أقرب لهؤلاء، لكنّي سأعطيك شيئا أفضل.

ابتسمت لها وأخرجت من حقيبة ظهري نفس الكتاب الّذي لاحظتني لأجله، عنوانه (في قلبي أنثى عبرية)، وهو كتابٌ مستوحى من قصّة حقيقيّة غيّر حياتي، كتبت لها داخل الكتاب:

"يمكنك أن تخبري صديقاتك أنّني كتبت رقم هاتفي هنا لكي لا تُحرجي، أتمنّى أن يجعلك هذا الكتاب ترين أفضل كما فتح عينيَّ أنا"

أغلقت الكتاب ومنحته إياها ثمّ مضيت في طريقي، كلمة "شكرا" هي كلّ ما سمعته منها. رفعت يدي خلف رأسي ملوّحا وأكملت طريقي.

* * * * * * *

لم أكن حزينةً أو مختنقةً على الإطلاق، في الحقيقة، كنت سعيدة بحياتي راضية بها، أبي من الجهة الأخرى، كان خائفا، صحيح أنّه كان مؤمنا بالقدر ولكنّني سأبقى ابنته، مهما حصل سيظلّ خائفا علي، هذا ما يميز الآباء للإناث، لن تجد الفتاة رجلا يخاف عليها أكثر من أبيها. هو خائف من كبر سنّه واقتراب أجله، وهو الوحيد الّذي يعيلنا. خائف أن يترك وراءه زوجته العجوز وابنته العزباء وحفيدته الصّغيرة دون حامٍ ولا معيل، ولكنّي أؤمن أن الله هو كلّ ذلك وأكثر.

أحسست بالثّقل على صدر والدي، أقوم الليل كلّ ليلة أطلب راحة البال له والمغفرة لي، فحتى إن كنت تعرضت للاغتصاب لا زلت أحس بالذّنب لأنّني كنت جزءًا من العملية، أبي يقوم الليل يطلب من الله الفرج والزوج الحلال لي، أمي كانت فقط سعيدة لأنَّ لديها رفقة في المنزل وخاصةً قدر الّتي لم تكن سوى نعمة.

- عزيزتي أنا خارج، هل تحتاجين لشيء؟ - سألني أبي بابتسامته الحنون زادتها لحيته نورا وجمالا -

- ممم....- تظاهرت بالتفكير -

- حلويات، كتاب جديد، مثلجات..؟

- لا، لا أحتاج شيئا، أنا بخير، إلى أين أنت ذاهب؟

- المدينة، سأضع إعلانا في الجريدة أبحث فيه عن مساعد في العمل

- هل ستذهب قدر معك؟

- لا، الحر شديد وهي لا تحب اكتظاظ المدينة كما تعلمين

- أين هي؟

ابتسم وأجابني:

- نائمة على طاولة المطبخ، أمّك وضعت القرآن لتستمع إليه بينما تطبخ وكما تعلمين قدر تنجذب له، تسترخي، تستمع، ثمّ تنام أينما كانت..

صمت قليلا ثمّ أضاف:

- أنت تدركين أن لديك معجزة، صحيح؟

- لدينا معجزة، نعم. - فهي ابنتي بقدر ما هي حفيدته -

- حسنا، أنا ذاهب.

- في رعاية الله أبي

كنتُ أفهم بضع أشياء من كلام أبي حتّى وإن كان يُخفيها، مثلا، سؤاله "هل تحتاجين لشيء؟" يعني أنّه مفلس، فلو كان لديه مال لحدّد سؤاله من الأول مثلما فعل في السّؤال الثاني، وبحثه عن عامل عن طريق

الجريدة الوطنية، يعني أنّه يريد عاملا لا يعرفنا، لا يعرفني، ولم يسمع يوما بالقصص الملفّقة عنّي، ما لم أكن أفهمه هو كيف سيدفع له إن كان بالفعل مفلس؟!

لابد أنّني غفوت بينما كنت أقرأ. استيقظت على صوت أمّي توقظني:

- أناييس حبيبتي، لقد حان موعد صلاة العصر، استيقظي يا كسولة.

ابتسمت فور رؤية وجهها المريح. حككتُ عيناي كطفلة صغيرة مدلّلة ثمّ احتضنتها لمدّة طويلة، كان ذلك من أجمل الأشياء في أمّي، عندما تحتضنها لن تتركَكَ أبدا حتّى تتركها أنت أوّلا، كانت تعطيك كلّ الوقت الّذي تحتاجه، كانت تعلم أنَّ حضن الأمّ هو أكثر بكثير من مجرّد أجساد تتلاصق.

- لابد أنّني غفوت. كيف أكون تعبانه وأنا دائمة الجلوس والراحة؟ هذا محيّر!

- هذا لا يحيّرني بقدر ما يحيّرني كيف أنّك رزقت بطفلة، طوال اليوم في غرفتك، تأكلين أحيانا وتأخذين قيلولتك، وتبقين رشيقة هكذا، بينما أنا، أتذوّق الحساءِ لأعرف مقدار الملح فيه، فيزداد وزني!!

أحب أمّي، أنا حقا أفعل. بكيَتْ لحزني، وبكيَتْ لفرحتي..تهتم بالجميع عدا نفسها، حتّى في الصّلاة توجّه كلّ دعواتها لنا، قدر تصلّي معنا أيضا في غرفتي، حتى إنّها تقوم قليلا من الليل أحيانا، لسبب ما كانت تحبّ صلاة الليل في الرّواق بدل غرفتي لكي لا يراها أحد،

أتحسّسها من حين لآخر لأتأكّد من أنّها بخير ولم تنم فوق سجادة الصّلاة.

أبي وأمّي تزوّجا زواجا إسلاميا تقليديا، لم يكونا يعرفان بعضيهما قبلا ولكن بعد زواجهما اكتشفا شيئا مشتركا بينهما، حبّهما لله ثمّ الجّنة، ومن تلك النّقطة، اكتشفا أشياء أخرى مشتركة بينهما. صدقَ من قال:

"وإن كنت لا تزال تبحث عن تلك الفتاة الجيّدة، لا تجرِي وراءها وتطاردها، بل ابحث عن الله أوّلا، لأنّك حين تجده، سيضمن لك إيجادها."

سافرا معا، ضحكا معا، بكيا معا، تزوّجا في سنّ مبكّرة جدًّا، أبي كان في العشرينات وهي كانت أقلّ منه بعامين، لم أسمعهما يوما يتشاجران، كان حبهما لبعضهما شديدا، ولم يفترقا يوما ولا نهارا ولا ليلا، عندما يجرح أحدهما الآخر، لا يغضبان كما يفعل الجميع، بل يحزنان بشدّة...كيف له/ لها، جرحي هكذا؟!

كان لكليهما سلاح في مثل تلك الحالات النّادرة، أبي سلاحه الصّمت، لا يتكلم ولا يتفوه بشيء، بل يذهب ويعزل نفسه بعيدا عن الجدال، عندما تدرك أمّي خطأها وأنّها جرحته، تأتي إليه على استحياء وتتملّقه بالحنان، فتحتضنه من الخلف وتبدأ بالكلام كأنّها صبية:

- جميل، عبد الله يا جمييل..هل أنت غاضب منّي يا جمييل؟ حبيبي، لا تغضب منّي، أنا حمقاء...عبد الله...يا جمييل، إن لم تسامحني فورا

وتتكلّم معي الآن فلن أتحدث معك أبدا، ولكن إن تحدثت معي فسأطهو لك البطاطس المقلية.

أبي يحب البطاطس المقلية أكثر من أيّ أكلة أخرى، ولكنّ الطّبيب منعه منها منعا باتّا.

- أنت حقًّا حمقاء

يُجيبها أبي دون أن يدير رأسه لها بصوت خافت، كما لو أنّه يقول

- لقد سامحتك، لكن أريد مزيدا من الدّلال والحنان

فتمسكه أمّي من خديْه وتدير رأسه إليها وتقول:

- حمقاء صحيح، ولكنّك تحب هذه الحمقاء، والآن هل ستساعدني في تقشير البطاطس أم لا؟

كان هذا مثالا على جدالهما في الأسبوع الماضي عندما أخطأت أمّي وتفوهّت بكلمات جارحة تخصّ عائلته الّتي تخلّت عنّا، أكل الزّمان جسديهما ولكن لم يأكل قلبيهما، أمّا عندما يُغضب أبي أمّي فهي تكسرُ كلّ آنية في المطبخ وتصرخ كالمجنونة، تجذب شعرها و...أنا أمزح، لا أصدق أنّكم كنتم على وشك تصديق ذلك! لكن لا ألومكم، نحن النّساء مجنونات! أمّي سلاحها "الدّموع الصّامتة"، فهي تذهبُ لغرفتها وتغلقُ الباب وراءها، تصعدُ فوق الفراش وتضمُ رجليها لوجهها بينما تعانق الوسادة وتبكي في صمت، بعد عدّة دقائق، تستطيع سماع أبي يدخل وراءها، يقترب لها ببطء ثمّ يرفع رأسها بأصابعه من ذقنها، فتغلق عينيها لكي لا تراه يراها تبكي، يمسحُ دموعها ويقبّل عينيها ويطلب منها أن

تسامحه، حتّى وإن لم يدرك خطأه أو إن أخطأ أصلا، المهم كان لا يحتمل التّصرفات الصّبيانية والدّموع الصّامتة، كانتا نقطة ضعفه، ولا يكتفي بذلك، بل يخرج ويشتري شيئا حلوا تحبّه ليطعمها إياها...أنا لا أفكّر بالزّواج، ولكن إذا كتبه الله لي، فتلك الأسلحة هي ما سأستخدمه بالضّبط على زوجي، لم أرها تخطئ التّصويب ولو لمرّة!

تلك الليلة لم أشعر بالجوع. بقيت في فراشي أقرأ رواية إنجليزية بعنوان "ثلاثة أسابيع مع أخي" حتّى سمعت طرقا بالباب.

- عزيزتي، هل يمكنني أن أدخل؟

- طبعا أبي..

دخل وخطى إلى سريري قائلا:

- لقد كنت ألعب لعبة الألغاز مع أمّك وقدر، للأسف، لقد خُدعت وهُزمت من قِبَل أمّك، وهي لم تتوقّف منذ ذلك الحين عن الضّحك ومحاولة إزعاجي، لهذا أتيت إليك هنا لتواسينني، فهُما لم تُظهرا رحمة أبدا

ضحكتُ وتنحّيتُ جانبا، فاستلقى بجانبي وغطّى نفسه باللحاف، أكملتُ مطالعتي في صمت بينما هو أغمض عينيه، وكان هذا من حسن حظّي لأنّني بدأت بالبكاء. هل حصل وكنتم يوما مع شخص تحبّونه بشدّة، وفجأة قفزت لأذهانكم واقعية الحياة، وأدركتم أنَّ هذه اللحظة مهما كانت بسيطة ستكون مجرّد ذكرى لن تعود يوما؟ أفكّر أنّه يوما من الأيّام سيختفي..سيموت، وهذه اللحظة بالذّات، هذه اللحظة البسيطة

الخالية من العواطف، ستكون ذكرى مؤلمة لي كلّما أدخل في فراشي وأتذكّره مستلقٍ جانبي ولكن لا أراه، دائما ما أحمد الله على عائلتي، فحتّى إن مات أقرب النّاس إليك فأنت لن تخسره حقا حتّى يخسر أحدكما الجنّة أو كلاكما. أحمد الله على نعمة الإسلام وعائلتي المتواضعة السّاعية لنيل رضاه.

بعد حوالي نصف ساعة، سمعتُ خطوات قدر وأمّي وأصواتهما في الرّواق. مسحت دموعي بسرعة قبل دخولهما. وما إن دخلتا حتى ارتمت قدر في حضني لتعانقني.

- أيها الخاسر، أنت مختبئ هنا!- قالت أمي -

- أنا لم أخسر، ولكنّني خُدعت

- هذا ما يقوله الخاسرون دوما

- أنا لم أخسر، لقد تعاونتما ضدّي

- نحن النّساء يجب أن نتّحد لننجو

- ابنتي أناييس امرأة ولن تتّحد معكما ضدّي أبدا! صحيح؟ -وجّه السّؤال نحوي، ولم أجد سوى الإجابة بحزم وثقة-

- أبدا!!

- آه! هكذا إذًا..

رمت إليَّ علبة دواء أبي وأضافت:

- إذن أنت أقنعيه بتناول دوائه

أبي كان يكره عقاقيره بقدر ما كان يحب البطاطس المقلية، أخذت أمّي قدر وخرجتا من الغرفة. أخذت علبة الدواء وأدرت رأسي لأبي أهزّها وسألته:

- هل هناك أيُّ فرصة أنّك ستأخذ الدّواءِ الآن دون مقاومة؟

- لا

أجاب بحزم ثمّ غطّى رأسه بلحافي وأضاف بثقة تامّة

- أبدا

- ...خيانة!

الفصل الثالث

- سراج الدين، سراج الدين؟

- هل أنت بخير أبي؟ ماذا هناك؟ أنت بخير؟ -إنّها الثّالثة صباحا، لا تلوموني على قلقي-

- أنا بخير ابني، أريد أن أستحم وأصلّي الفجر، أشعر بالقذارة في جسدي وأمّك نائمة ولم أشأ إيقاظها..تعال وحمّمني أنت، تدين لي بذلك، فعلى الأقل أنا لن أقضي حاجتي عليك كما كنت تفعل أنت في صغرك.

سُررت بتحميمه، ربّما لأنّه أسرّني الشّعور بتحسّن صحته وحيويته، أو ربّما لأنّني أشتاق لمثل هذه اللحظات،أن يحتاجني شخص أو أكون ذا فائدة لأحد؛ استحممت أنا أيضا واتجهنا إلى المسجد للصّلاة معا؛ على السّاعة السّابعة توكّلت على الله لعِلمي أنَّ معظم صالات الرّياضة وبناء الأجسام تُفتح في ذلك الوقت؛ وضعتُ مخطّطا لكلّ صالة رياضية في المدينة من الأقرب إلى الأبعد لأزورها واحدة بواحدة لكي لا تختلط عليّ الأمور وأزور البعيدة ثمّ القريبة ثمّ البعيدة مجدّدا. لم أكن يوما بهذا الذّكاءِ ولكن آثار حروق شمس البارحة على جلدي علّمتني الكثير. ماذا يمكنني أن أقول، أنا أتعلّم بالطّريقة الصّعبة..دوما.

أخرجت صينيّة الفطور لعمّي عبد الغني وقبل أن أجده بادرني هو بالتّحية من خلفي كأنّه هو من كان يحاول أن يجدني.

"بني سراج الدين، لديَّ خبر سعيد" أخرج الكلمات من فمه كطفل يقفز من السّعادة.

وضعت الصّينية على الأرض لأترك له المجال ليحتضنني، ولكنّه عصرني بدل ذلك، لم أستطع حتّى السّعال، كلّ ما كان يخرج منّي هو أصوات حنجرتي وهي تحاول أن تتنفس، وعندما تركني قال:

- لقد وجدت عملا

- هذا رائع عمّي والآن اجلس للفطور وأخبرني كلّ شيء

- جلس -

- البارحة سألت نفسي لم أنا لست مثلك؟ فأنا متفرّغ كلّ يوم ولا أبحث عن أيّ عمل؛ كنت أتجوّل ليلا وأفكر في الأمر فسمعت قيّم المسجد يناديني، ثمّ أخبرني أنّه سيرحل لمدّة ثلاثة أشهر ويريدني أن آخذ مكانه حتّى يعود. أليس هذا رائعا؟

- طبعا عمّي عبد الغني ولكن تكلّم مع الإمام أوّلا وأخبره بما أخبرك به القيم.

- لماذا؟

- تعلَّمْ أن تُحسن الظّن بالنّاس لكنَّ الثّقة تُكسب ولا تُعطى؛ إن تمت سرقة غرض من المسجد، أو حصل مشكل فيه، فلن يتردّدوا في إلقاء

اللوم عليك بحكم ماضيك، وإرسالك إلى غرفة لا تخرج منها سوى للأكل

- حقًّا؟ - سألني بصوت مبتهج..لم يفهم قصدي وأعجبته فكرة الغرفة والأكل -

- أنا أتحدّث عن السّجن عمّي عبد الغني..

- آه..للحظة بدا ذلك لطيفا

- اذهب للإمام وقت خروجه من الصّلاة وتحدّث معه عن الأمر؛ اسأله أن يتحرّى عن كلّ شيء قبل أن تقبل الوظيفة، اتفقنا؟

- بالطبع

- أنه فطورك وابق الصينيّة بجانب الباب؛ عليّ أن أمضي الآن

- وفّقك الله بُني

لا أعلم لماذا يراني عمّي عبد الغني أو أبي أو أمّي كأنّني كبير في السّن، هل لأنّني حقّا كبير في السّن؟ أم لأنّني مثقّف؟ أم لأنّني الوحيد المتوفر؟ كلّ هذه الأسباب بدت واهية. رغم أنّ طفولتي سرقت منّي في الماضي المستور، إلّا أنّني لا زلت أحسّ داخلي بذلك المراهق أو الطّفل، وهذا أخافني، لأنّني دائما أنظر لنفسي على ذلك الأساس رغم أنّ

تصرّفاتي ناضجة وكلامي بالغ. أخاف أن أعلق هناك دون توازن وأعيش في تناقض دائم مع نفسي سيؤثر نهاية على علاقتي بغيري.

بحثت في كلّ صالة. سألت أصحابها سؤالين، الأوّل إن كانوا بحاجة لمساعد، والثاني عن سعر الاشتراك للشّهر، واستنتجت جوابين اثنين، لا عمل لي ولا مال كاف لأنظم للصّالة وأهتم بصحّتي قليلا، فهممت بالعودة للبيت؛ لا أنكر أنّني ذرفت بعض الدّموع في الطّريق عندما فكرت في الطّريق المسدود الّذي أنا فيه؛ بدايةً بأبي المريض الّذي لا يستطيع تحمّل تكلفة طبيب؛ أمّي الّتي أراها تتكلّم مع نفسها جهرا أحيانا وتبكي في صمت شديد تصرخ لأجله روح فلذّة كبدها لعجزه عن مسح همّها عن بالها؛ الفواتير الّتي تتراكم؛ النّاس الّتي تظلم وتضرب وتكره دون سبب ودون مراعاة. صحّتي الّتي تتدهور. .ولكن كلّ هذا لم يُتعبني أكثر ممّا أتعبتني المسؤولية الواقعة على عاتقي وكيف من المفروض أن أكون أنا القويّ الّذي سيأتي بالحلول؟!!

رأيتُ جمعا من النّاس حول منزلي يكبر أكثر كلّما اقتربت؛ ما إن رأيت سيارة الإسعاف حتّى توقّفت للحظة، ولست أنا من توقّف فقط. .الدّنيا توقّفت عن الدّوران معي، وقلبي أيضا. دون أمر منّي بدأت قدماي بالرّكض، لم أشعر بشيء سوى الخوف وانعدام الهواء، لم أستطع التّنفس؛ أوقفني عمّي عبد الغني بينما كانت سيّارة الإسعاف تمضي بعيدا؛ لم أستطع الكلام، إن فتحت فمي لأتفوّه بحرف واحد، لنزلت

دمعة في مكانه. الكلّ كان يشاهدني..أحسست بعيونهم ملتصقة بي من كلّ باب ونافذة وسطح..

"إنّا لله وإنّا إليه راجعون" الكلمات الوحيدة الّتي سمعتها من عمّي عبد الغني؛ يقولها ويكرّرها تارة لي وتارة لنفسه؛ اختفت دموعي وكلماتي وأحاسيسي؛ جلستُ على حافّة الطّريق وجلس هو جنبي واضعا ذراعه الأيمن حولي؛ الجميع ينظر إلي كأنّهم يتوقّعون شيئا منّي أو أن أقوم بعمل ما، كلّ ما أردته هو الصّراخ بوجوههم، لم ينظر إلينا أحدٌ عندما قطعوا عنّا التّدفئة ولكن الآن الجميع ينظر، كرهتهم، كرهت جميع البشرية؛ أردتُ الصّراخ لكنّني لم أفعل مع أنّه كان بمقدوري؛ الأمر لا يستحق العناء بعد الآن..

- أين هي؟ - سألته بنبرة ثقيلة محمّلة بالدّموع-

- لم تُرد مفارقة أبيك فأخذوها معهم

- أدخل للمنزل الآن عمّي واهتم به..سأذهب وأطمئن عليها

- افعل ما عليك فعله ابني..حقًّا، ليس لديّ ما أقوله

قضيتُ اليومين التاليين في المستشفى. أمّي رفضت الأكل والشّرب حتّى اضطرّوا لتغذيتها عبر الوريد. لم تتوقّف عن ذرف الدّموع حتّى وإن كانت لم تقصد البكاء؛ شعرت بالعجز، العجز الحقيقي؛ حَكَت لي أمّي لأوّل

مرّة عن كيفية التقائها بأبي، وفهمت أنّها لم تكن تبكي فقط لأنّها خسرت زوجا أو شريك حياة..بل خسرت جزءًا منها...سبب حياتها.

كانت أمّي تقترب من سنّ العنوسة وجميع أخواتها قد تزوّجن؛ لم يبق في المنزل سواها هي وأمّها بعد أن مات أبوها؛ كانت أحبّ البنات لأبيها لأخلاقها وبرّها له، كيف لا يحبّها وهي ستفتح له بابا من أبواب الجنّة! كانت لا تشتكي سوى لله، ولا تبكي إلّا عندما تكون وحدها لكي لا تُشعِر أمّها بالعجز.العجز شعور رهيب، أن لا تستطيع مساعدة من تحب، رهيب جدّا.

خرجتْ هي وأمّها ذات مساء لتغيّرا الجوّ الكئيب الّذي يُعيد ذكريات الغائب بين جُدران المنزل وأركانه؛ ذهبتا لحديقةٍ عامّةٍ خاصّةٍ بكبار السّن والعائلات، بمعنى آخر، لا مُعاكسات، لا كلام فاحش ولا مناظر تُضيق النّفس من الحرام الّذي يحصل فيها؛ جلستا على مقعدٍ أزرقٍ، رغم أنَّ المقاعد متوفّرة، ورغم أنّ أمّي كبيرةٌ قليلا في السّن، إلّا أنّها تمكّنت من حماية بعض الطّفولة فيها، فسارعت إلى المقعد الّذي يحملُ لونها المفضّل وجلست عليه.

كان على يمينهما عائلة مع أولادها. وعلى يسارها مقعد بنيّ فارغ، ومقابلهما رجلٌ يقرأ الجريدة ويشرب القهوة. كانتا صامتتين، فأمّي تنظر للعائلة فترى "أبناء" وجدّتي تنظر لنفس العائلة فترى "أحفادا"؛

رأت أمّي أصغر الأطفال فيهم يطلبُ المثلّجات وأمّه مهتمة بالثرثرة أكثر منه. ذلك الطّفل الصّغير لم يبكِ..أحسّ بالوحدة بعد أن رفض إخوته اللعب معه، فابتعد عنهم وجلس على التّراب يُراقبهم في صمت دون حراك؛ لم تستفق أمي إلّا ودموعها على خديْها، لا تدري إن كانت أحسّتْ بالوحدة مثله، أو بالأمومة تُفجّر قلبها؛ غيّرت اتّجاه رأسها أمامها لكي لا تلاحظ أمّها دموعها، فرأت صاحب الجريدة ينظُر إليها نظرةً حادّة ومختلفة، نظرة جعلتها تشعر أنّه هو أيضا يبكي؛ كان يبدو جميلا بعينيْه الزّجاجيتين الكبيرتين؛ مسحت عينيها خجلا وقامت لشراء المثلّجات للطفل، لكنّها عندما عادت وجدت الطّفل الصّغير بين أحضان الرّجل يأكل مثلجاتٍ اشتراها له؛ جالت بنظرها حولها تتساءل من أين اشترى المثلجات له بهذه السرعة! لم تجد جوابا لسؤالها ولكنّها بَدَل ذلك بكتْ لأنّه حرمها من ذلك حضن ذلك الطّفل. كانت ذات قلبٍ حسّاس أفخر أنّني ورثته منها.

تحوّلت نظراتها الدّامعة إلى نظراتٍ غاضبةٍ وجّهتها إليه بعد أن أطعمت المثلّجات لأمّها؛ ضحكتْ أمّي على سريرها في المستشفى وقالت:

"غضبت منه لأجل ذلك..حرمني من طفل غيري، ولكنّه منحني طفلي الخاص"

كان ذلك أبي..بعد أن رآها تبكي، ثمّ رآها تُحاول بجُهد أن ترمقه نظرات غاضبة بأعين شبه مُغمَضة زادتها جمالا وليس غضبا، مزّق جزءا من الجريدة وكتب فيها

"السلام عليكم ورحمة الله؛ هل باب الحلال مفتوح أم مغلق؟"

ثمّ طواها وأعطاها للفتى الصّغير مع القلم، والّذي أعطاهما بدوره لأمّي الّتي غضبت قليلا من وقاحته وجرأته، لكنّها كانت ذكية فكتبت على خلفها..

"أغلقته لكي لا يدخل الحرام منه، ولكنّ أهل الحلال سيطرقونه فلديهم أخلاق وعلمٌ في الدّين يطرقون بهما الباب ولو كان مفتوحا"

وأعادت الورقة والقلم إليه بعد أن أخذت القليل من أحضان الفتى وقبلاته، لم تكن لتتركه يذهب هكذا؛ قرأ أبي جوابها وبعد أن ابتسم لجوابها، أعاد إليها جزءا آخر من الصّحيفة كتب فيه

"العنوان ورقم هاتف أبيك؟"

كتبتْ له العنوان ورقم أخيها الأكبر ومقرّ عمله، فغادر الرّجل من وقته، وتلك الليلة بالذّات اتّصل بها أخوها وبشّرها

"حضّري نفسك، غدا يأتيك خاطب"

"لم أفهم" قالت أمّي على فراش المستشفى "...لا زلت لا أفهم، كان وسيما، نحيلا قليلا، لكن جدّ وسيم، هادئ، يجذبُك بملامح الثّقافة على وجهه، كانت لديه نظرةٌ على وجهه تُعطيك الانطباع بأنّه قد فهم كلّ شيء؛ لمْ أفهم لمَ اختار امرأة في مثل سنّه ولم يختر من هي أصغر منّي وأكثر جمالا، لا زلت لا أفهم، كنتُ مؤمنة بالله لكن بعده هو، زاد إيماني وحبّي لله لأنّه قد أرسله إلي، كان معجزةً في عيني، معجزةً بالنّسبة لي"

- هل أحببته؟ -زلّة لسان ندمت عليها-

- كنت أحبّه، ثمّ جُننت به، ثمّ بلغتُ مراحل الحبّ والودّ أقصاها؛ نعمةٌ هو، ملاكٌ مرسلٌ من الله..كان حلالي وقدري، كان لي وحدي، كان فيه كلّ صفةٍ تخيّلتها في زوجي المستقبلي منذ أن كنت طفلة، الحنان، اللطف، الهدوء، الابتسامة، كنتُ قد بدأت اليأس من الحياة والإحساس بالكِبَر ولكنّه أعادني صغيرة، طفلة من جديد

- لهذه الدرجة...!-قلت مبتسما-

- بل وأكثر..كنتُ لا أستطيع الانتظار حتّى أراه مجدّدا..حتّى وإن كان في المنزل، كنتُ ألقي عليه نظرةً من حين لآخر لأراه يقرأ كتابا بهدوء، أو مستلقٍ على الأريكة ينظرُ للسقف بصمت؛ أحسستُ بمعجزة الله فيه، أُرسلهُ إليَّ ومنحني إيّاك وسترني وقرَّبني إلى الله، حتّى عندما كنت أواجه

الواقع بأنَّ الموت حقّ، دعوتُ الله قياما وقعودا، ليلا ونهارا أنْ يجمعنا في جنّته..بل وأكثر من هذا..تمنيتُ أن نموت في وقت واحد لكي لا...نشعر...

توقّفت أمّي عن الكلام ولكنّ دموعها لم تتوقّف بل زادت انهمارا. نمتُ على الكرسي بجنب سريرها واستيقظت على صوت الممرّضة تُنادي الأطباء..أمّي توفّيت أيضا..ماتت.

وقفت هناك ليس لأنّني أردتُ ذلك بل لأنّني أُصبت بالشّلل حتّى في عقلي، لم أستطع الحراك ولم أستوعب شيئا، كنت في صدمة، حتّى بدأ تنفّسي يصعب والرؤية تُشوّش عليّ وسقطتُ مغشيا عليّ.

استيقظتُ على سرير في المستشفى، أصبحتُ مشهور المدينة، بل والبلاد؛ أخبروني أنَّ قصّة عائلتي في الصّحف وأمّي قتلها الحزن على فقدان الحبّ الحقيقي..آمنت بذلك..ولكنّني آمنت باستجابة دعوتها أكثر. شعرتُ بالغضب ثمّ الحزن لأنّها نسيتني في دعائها؛ أبقتني حيّا وحدي..

لم يعد للعالم طعمٌ ولا ضجّة ولا معنى. كلّ أهدافي وأعمالي لأجلهما، لأجل إسعادهما، إعانتهما، والآن بعد أن رحلا...ماذا الآن؟!لم تنزل لي دمعة واحدة..لم أفهم لماذا؟ لم أخرج من منزلي، ولولا عبد الغني لنسيت الأكل، لنسيت الصّلاة، لنسيت حتّى غسل

أسناني. كان سعيدا بالاهتمام بي كأنّني ابنه الوحيد؛ فكرتُ بكلّ شيء آخر حتّى أُبعد التّفكير بهما، لكنّ رائحتهما لا تزال في المنزل. أخذتُ أنظّفه بالماء على الثانية صباحا. رآني عبد الغني لكنّه احترم حالي، بعد الرّائحة بقيتْ الصّور، فحرقتها كلّها...بقيت الملابس والأدوات والأفرشة والأصوات..لم أستطع فعل شيء. شردَ تفكيري للحظة بعبد الغني..فقدتُ والداي فكيف هو بعد أن فقد أبناءه وزوجته؟ ربّما هو ميتٌ أكثر منّي لكن بقلب ينبض فقط.

فعلتُ كلّ شيء لأبعد التّفكير عنّي، أصلحتُ الأبواب والخزائن والنّوافذ؛ شعرتُ أنَّ قبرهما هو في عقلي.

- بماذا تحسّ عندما تفكر بهم؟

- من؟

- عائلتك

- لا أدري

توقّف عن الطّبخ وجلس على كرسي مائدة المطبخ ثمّ أكمل:

- لا أدري، أشتاق إليهم، هذا مؤكد، ثمّ أحزن عندما أفكر أنّهم نسوني، ثمّ أغضب من نفسي وخيبتي منها لما فعلته..أحسّ بالكثير وأفكر بالكثير أيضا..لهذا يدعونني بالمجنون خارجا..

أحسستُ بكرهي للمنزل..كلّ ذرّة منّي لم تحتمل كلّ زاوية منه. لاحظ عبد الغني شرودي فعاد للطّبخ؛ كان في الماضي طبّاخَ أطعمة سريعة ممتاز.

وقعت عيني على الجّريدة الّتي اشتراها قبل أن يأتي للمستشفى ليعيدني إلى المنزل، فتناولتها لأقرأ الأخبار المنشورة عن عائلتي.

"بحثٌ عن عامل؛ مدرّب كمال أجسام؛ أجرٌ قليل لكن نوفّر الأكل والإقامة. الهاتف *********** العنوان ------"

"وقتٌ طويل..ربّما وجدوا مُساعدا بالفعل...اتصل ماذا لديك لتخسر؟" كلمت نفسي.

- عبد الغني؟

- نعم؟

- لو عادوا إليك كلهم، وعاد إليك مالك ومنزلك، هل كنت لتعيد نفس الخطأ؟

- لا، طبعا لا؛ لماذا تسأل؟ هل تفكّر بالشّراب ؟ أنت تعلم أنّني لن أتركك تفعل هذا، أبوك سيقتلني، أو أسوأ...أمّك ستفعل

ابتسمتُ لأوّل مرّة منذ أن فقدتّ سبب ابتسامتي؛ قبّلته على جبينه وصعدتُ إلى السّطح حاملا هاتفي بيدي لأتّصل بصاحب الإعلان

- السّلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

- وعليكم السّلام ورحمة الله تعالى وبركاته

لأوّل مرّة يردّ عليّ أحد التّحية كاملة. جاءت من صوت خشن لكن حنون

- أعتذر للإزعاج في هذا الوقت المتأخّر. أنا أتّصل بشأن الإعلان في الجريدة، هل لا يزال متاحا؟

- يا ابني، صراحة لم أكن أظنّ أنّ أحدا سيتصل لأجله. الأجر قليل جدًّا

- لا يا عم، لا يهمّ الأجر، يهمّ المكان، الأكل والإقامة.

- ابني، هل أنت بخير؟

- ماذا تقصد؟

- صوتك يا ابني؛ كم مضى من عمرك؟ هل ستهرب من المنزل أو ما شابه؟

- لا يا عم...نعم، لكن ليس بالطّريقة الّتي تتخيّلها

- حسنا يا ابني، إذا حصلتَ على الوظيفة فستأكل في بيتي وتنام مع عائلتي، فهل تمانع إخباري لماذا يريد شابٌ مثلك أن يحصل على وظيفة بأجر يومي لا يطعم قطة؟

هل تعرفون تلك اللحظات الّتي تُحاصرون فيها بموضوع لا تستطيعون له شرحا سوى قول الحقيقة الّتي لا تريدون البوح بها؟ لم أجد حلًّا غير الحقيقة، فأخبرته بها كلّها؛ دعا لوالديَّ بالرّحمة ورحّب بي للعمل، بل وغيّر مكان نومي من غرفة المعيشة إلى غرفة في الطّابق العلوي؛ اعتذَر عن الأجر مجدّدا لكنّني أخبرته أنّ المال لم يعد ذا قيمة، فقد رحل من كنت أحتاجه لأجلهم؛ لم أخبر عبد الغني ولكن بعد يومين تركت له رسالة مكتوبة شرحت فيها كل شيء.

"لطالما جعلني اسمك أفكر في الكثير، فاسمك وحده حمل إليّ درسا لم أكن أعرفه قبلا؛ أدركت أنّ الإنسان مهما بلغ من ثرائه فلن يكون غنيّا إلّا إذا أغناه الله بالإحسان وحسن الخلق والإيمان؛ لا أدري كيف كنتَ قبل أن أعرفك، ولكنّني أعرفك الآن وهذا يكفيني، وأنت يا عبد الغني، غنيٌّ في نظري؛ لقد

علَّمْتني أشياء دون قصد منك، وأتمنى بدوري أن أكون قد علّمْتك أشياء واكتسبت احترامك كفاية لتأخذ رسالتي هذه بجدّ ولا تخيب ظنّي فيّ ولا في نفسك.

الحقيقة يا عبد الغني، هي أنّني لا أستطيع البقاء بين جدران هذا المنزل المشبّع بذكريات والداي؛ أنا الّذي ورثت قلب أمّي الحسّاس؛ صحيح أنّ جزءها المخيف المرعب الّذي نعرفه أنا وأنت قد مات معها ولكنّني تمنيت أن أحصل عليه أيضا. في وقتنا، الرّجل الحسّاس ليس له فرصة في النّجاة.

أنا أكره الوداع، ولقد أنعم الله عليّ بكوني كنتُ بعيدا وقت وفاة أبي، ونائما وقت وفاة أمّي. وأنعم عليّ بجار مثلك يعرف القراءة. صحيح أنّك كنت بلا مأوى ولا أهل ولكنك كنت خير جار، وخير صديق وخير أخ، وخير أب.

أنا لا أُغادرك، ولكنّني لا أستطيع وصف ما أشعر به؛ لا أستطيع أن أتخيّل بأيّ طريقة أن تكون لي حياة هناك؛ أنا أُفارقك للوقت الحالي لحين أن أجد طريقي مجدّدا، ولا تقلق، أنا لن أتركك وحيدا أيضا. الحقيقة، لطالما كنت خائفا من الموت، لكن الآن بعد أن رأيت والداي يغادران، أحس بجدّ أنّني مجرّد عابر سبيل هنا، والآن، أرحب بالموت ليعيدني إلى عائلتي، ولكنّني أصبحت أخاف شيئا آخر، أصبحت أخاف النسيان؛ أخاف أن أموت وليس لي في هذه الدّنيا أثرٌ يَذْكرني به أحد ولو

بدعوة صالحة..أن أغادر دون أثر لي ولو في قلب أحد بكلمة طيبة.

الحقيقة المرّة الّتي يبدو أنّ الجميع قد نسيها، هي أنّ الجنّة ليست بالمجان؛ لهذا، هدفي الجديد هو رؤيةٌ أحلمُ بها بأعينٍ مفتوحة..أن أكون أنا وأبي وأمي من الّذين يحبهم الله ويدخلنا الجنّة بسلام لننعم بالنظر إليه. أريد، يا عبد الغني، أن أكون خطوةً لوالديَّ تُقرّبهما للجنّة لا النار، لأنّهما سيُحاسبان على كلّ ما يبدُر منّي لأنّني كنت مسؤوليتهما. لذا، سأفعل فقط ما سيُسعَدان بالمحاسبة عليه، ولهذا أيضا، يا عبد الغني، أريدك أنت وعائلتك أن تجتمعوا معنا في الجنّة، لأنّ أبي أحبّك في الله حبّا صادقا، وقبل أن تفعل أو تقول أيّ شيء في الدّنيا، أريدك أن تسأل نفسك هذا السؤال:

"هل أرضى أن يكون هذا العمل أو القول في صحيفة أعمالي يوم أقف أمام الله أم لا؟"

لقد كذبوا علينا يا عبد الغني، السّعادة ليست غناءً وذنوبا وملابس وموضة وأصحاب سوء وتفتُّح عقل وسهر وعلاقات...السّعادة الّتي أقصدها تفوق ذلك، وتدوم إلى الأبد. سعادة بدأتها بك أنت.

لقد ذكرت عائلتك لسبب واحد، وهو لأنّني زرتُ زوجتك البارحة وهي اتصلت بدورها بأبنائك، عليك أن تنظّف نفسك

جيّدا والبس ما يريحك من ملابس أبي، واطبخ طعامهم المفضّل..فهم قادمون للعشاء.

أمر آخر، سيأتي كاتبٌ بعد صلاة الظّهر لتُوقّع على بعض الأوراق؛ تهانينا جاري، أصبح لديك منزل الآن؛ أنا لا أحتاجه حقًّا، المنزل دون أهل ليس سوى بيت مهجور؛ لقد تركت لك هاتفي على طاولة المطبخ لكي يتّصل بك.

عبد الغني، أتذكر عندما قلت لي أنّ حلمك كان مطعمًا صغيرا اسمه "عبد الغني وأبناؤه"؟ أريدُ منك أن تهدم جدار المطبخ الخارجي وتسعى خلف ذلك الحلم. لا يهمّ كم سنّ الرجل أو المرأة، مادامت الرّوح لا تزال في الجسد والعزيمة في القلب، ومادام الحلم حلال، فسعيك لذلك الحلم حياة، ولكن لن ينفعك تسميته بذلك الاسم، بل عليك تسميته "عبد الغني وأبناؤه وأحفاده"..تهانينا، أنت جدّ لطفلين، أحدهما في عامه السّابع والآخر في عامه الأوّل، كلاهما من ابنك الأوسط. لا تقلق، أنت لم تفوّت من عمره الكثير، سوى البكاء والحفّاظات ووجعَ الرأس، من المفترض أن يكون الخبر مفاجأة، لكنّك تعرفني، أحبّ أن أحمل الأخبار السعيدة. تظاهر بالمفاجأة ولا تفضحني.

هذا هو عنواني الجديد الأوّل، أتوقّع أن تراسلني بأخبار سعيدة، والأهم..لا تنسني."

ابنك سراج الدين.

*   *   *   *   *   *   *

صحيحٌ أنّ في قريتي الصّغيرة تنتشر الأخبار بسرعة، والإشاعات أسرع؛ مع كلّ تلك الإشاعات، تتعجّب حقّا لمَ ليس لدينا في بلدنا كُتّاب أكثر؛ منذ قرابة الأسبوعين جاء شاب للعمل مع أبي، ومنذ أن فعل، هذا ما كان على ألسن الناس من مسامع أبي:

"لقد زوَّج ابنته سرّا من رجل فقير خارج المدينة؛ إنّه شابٌ نحيف لا يمكن أن يكون ذا خبرة في بناء الأجسام، ويبيتُ معهم أيضا، لذا لابدّ أن يكون زوجها. لقد أعطاه عملا وبيتا وزوّجه ابنته وأدّعى أن حفيدته هي ابنته الصغرى." للحظةٍ نسيتُ أنّهم يتكلمون عنّا وظننتُ أنّني أسمع قصّة درامية تلفزيونية. .للحظةٍ تُهت مع القصّة وبدأتُ أتساءل:

"ماذا سيحصل للفتاة الصغيرة؟ هل ستبقى سرّا؟ هل سيكتشف الشّاب أو أنّ الفتاة ستقع في حبّه وتخبره بالحقيقة أملا في الصفح؟ أم أنّها ستكذب عليه طيلة حياتها؟ هل سيتقبّل الحقيقة؟ "

يجب عليّ أن أكتب، ستكون رواية رائعة.

الشابُ حقّا لطيف؛ أخبرني أبي بقصّته ممّا زاد فضولي عنه؛ لم أره ولم أتكلم معه منذ أن وصل، لكنّه خجول جدا؛ أشعر بالأسف لأجله أحيانا، فهو لا ينام كثيرا، لا أدري ماذا يفعل في تلك الغرفة ولكنّه لا يُشعل الأنوار تفهُّما لفقرنا وفاتورة الكهرباء؛ يأكل كلّ وجباته في الصّالة ويبقيها مفتوحة لأواخر الليل، وهذا شيء لم يعد أبي يستطيع فعله، ممّا زاد من عدد الزّبائن المشتركين، سبعة في أسبوعين.

أمّي تحبّه كثيرا؛ يستيقظ للفجر، يصلّي ثمّ ينظّف غرفته ويرتب فراشه؛ يذهب للصالة ويغسل ملابسه المتّسخة هناك؛ عندما يأكل ينظف الأطباق قبل أن يعيدها معه؛ تخبره أمي:

- لا بأس ابني. اسمح لي أن أغسل ملابسك

فيبتسم ويجيب:

- قد تسمحين لي، لكنّ أمّي لن تسمح لي أبدا.

أبي فات أمّي في حبّه له؛ يقول أنّه كثير الابتسام وكثير الصبر مع الشّباب وتصرفاتهم الطائشة. ينظّف الصّالة ويعيد الأجهزة إلى مكانها، وعندما يسأله أبي يجيب:

"أحبّ التّنظيف..عندما أكون في بيئة نظيفة ومرتّبة، أحسّ بأنّي نظيف مرتّب ومُرتاح"

وبسبب ذلك التّنظيف والتّنظيم، أصبح المشتركون يقضون وقتا أطول في الصّالة؛ يقول أبي أيضا أنّه يعرف الكثير عن الدين والقصص الدّينية، أخيرا وجد أبي شخصا يستطيع أن يحاوره غير عائلته.

ابنتي قدر لم تعرف من النّاس غيري وغير جدَّيْها، لذا هي تشعر بالغرابة والخوف منه كأنّها لا تفهم شيئا؛ تقول أنّه لطيفٌ معها ودائما يبتسم لها لكنّها تظنّ أنّه أحمق؛ حاولت أن أُفهمها أنّ الخجل يفعل ذلك لكنّها تعلّقت بتلك الكلمة. مهما حاول استدراجها، تهربُ بعيدا عنه. أحيانا ترتدي نقابها الأسود المفضّل داخل المنزل خجلا منه، وأحيانا لا تفعل، لكنّها بالتّأكيد تتصرّف بطريقة لم أعهدها عليها قبلا، ربّما هو فضولها فقط.

بالنسبة لي، في البداية لم يعجبني الأمر؛ ظننتُ أنّ المنزل سيتغيّر، وبما أنّه شاب، فستكون هناك ضجّة كبيرة وكثرة دخول وخروج خاصّة وأنّ غرفته في آخر الرّواق.عندما سمعت عن تصرفاته، ثمّ لاحظت هدوءه، ثمّ رأيت تأثيره على حياتنا، حمدت الله عليه. جعل أبي أكثر سعادة، حقّا أصبح يتصرّف كأنّه شابّ مجدّدا، لا يشتكي ألما ودائم الحيوية؛ يتصرف كأنّه وجد صديق حياته؛ أمّي، لا تزال تسخَر من نفسها:

"أيعقل أنه يغسل الأواني والملابس أحسن منا؟!"

كما أنّه ساعد في العمل كثيرا وحسَّن المكان وأحضر الزبائن؛ أحيانا، الإنسان نفسه يكون نعمة وبركة وفرجًا من الله تعالى، حتى وإن كان ذلك الإنسان لا يدرك ذلك، بل كان فقط يتصرف على طبيعته وبأخلاقه الّتي رزقها الله إياه؛ تشعر أنّ الله تعالى كان يُعدّه لك، ويرشده منذ البداية ويعلّمه ليصل إليك في المرحلة الّتي تحتاجه فيها بالأشدّ...الله فعل، الله يفعل.

- عزيزتي؟

- نعم أبي، أدخل

- آه، هاهي قدر، لم أرها اليوم

- هي نائمة، أصبحت تقضي وقتا أطول معي

- هي لم تتعود على سراج الدين، لكنّه يعشقها

- حقا؟

- نعم، مجنون بها؛ يتكلّم عنها كلّ الوقت ويحاولُ دائما أن يُناديها؛ قريبا سنراه يطاردها في الرّواق.

- هل أخبرته؟ -كنت أقصد عن حادثتي-

- لا، لم أفعل؛ لا أظن أنّه حقًّا يهتم، كما أنّه لا يعقد صداقات مع الشّباب أبدا، هذا ما جئت إليك بشأنه.

- ماذا؟ خيرٌ إن شاء الله

- خير، خير بإذن الله؛ طلب منّي الإذن كي يذهب للمدينة، فمنحته إيّاه لكنّه لم يذهب. سألته بعدها فأجاب أنّه يكره ازدحام المدن، أخبرته أنّني ذاهب غدا لكي أشتري كتابا لكِ إذا كان يحتاج شيئا لأشتريه له في طريقي، فأجاب: "كتاب"

- يقرأ الكتب؟

- نعم، هذا ما يفعله في الصّالة عندما لا أكون أتكلّم معه. لديه سبعة كتب أحضرها معه، لذا كنت أتساءل إن كان بإمكانكما المبادلة؛ سبعة بسبعة، تُعيدانهما بعد القراءة وترحَماني من عناء الذّهاب إلى المدينة.

- هل سيحافظ عليها؟

- أنظري إلى كتبه واحكمي بنفسك

أخرج من حقيبته الرّياضية سبعةَ كتب تظهر كأنّها جديدة، والأفضل أنّها كلّها روايات؛ أربعة منها أجنبية وثلاثة عربيّة تحكي قصصا

حقيقيّة؛ لم يكن لديّ كتب بهذه الروعة لذا لم أستطع مكافأة الكفّة، لدي ما يقارب المائة كتاب، ولكن مقارنة بهذه...

- أبي، ما رأيك أن أختبئ في غرفتك،وأنت تحضره هنا ليختار بنفسه؟

- حلّ عادل بالنّسبة لي لكن عليك أن تحافظي على كتبه؛ إن توقّفَ عن القراءة في الصّالة ولو لدقيقة، يضعُ الكتاب في حقيبته تحسّبا لأيّ حادث..لا تحرجيني.

- طبعا أبي؛ إحراجكُ هي مهمّة أمّي، ولن آخذها منها

ضحك وسألني قبلة، فقبّلته وذهب.

- ميعادنا الليلة بعد العمل

مضت عليه نصفُ ساعةٍ في غرفتي مع أبي؛ أتفهّم أنّ اختيار الكتب يأخذ وقتا، فهي ليست مجرّد أوراق، بل رفقة، عليك أن تختار الرّفيق الّذي تريد أن تقضي الوقت معه، كما أنّني لم أجعل مهمّته سهلة، لديّ الكثير من الرّفقة.

لطالما احتار والداي عن كيفيّة بقائي في تلك الغرفة طوال الوقت دون الشّعور بالاختناق، لكنّني في الحقيقة لم أكن؛ لم أكن مختنقة ولم أكن في غرفتي ولم أكن وحيدة؛ لقد عشت في كلّ العصور وكنت كلّ

شيء عدا نفسي؛ عشت مع الديناصورات وكنت واحدة منهم؛ عشت مع رجال الكهف وكنت رجلا منهم أيضا، لم أكن حتّى امرأة؛ عشت مع مرضى السّرطان في المستشفى كطبيبة ومريضة؛ عشت رحّالة مع خير عباد الله في الصّحراء أرتحل من مكان لمكان؛ ركبت السّفن واصطدت السّمك؛ ركبت الفَرس وسقطت عنها؛ علِقت في جزر مهجورة وحدي؛ حتّى أنّني حظيت بحديقة حيوانات خاصّة بي، لقد حظيت بكلّ شيء؛ عشتّ منذ أن خُلقت الأرض إلى حتّى المستقبل دون أن أغادر غرفتي.

الفصل الرابع

الأمر غريب كيف أنّه عندما تخسر من تحبّ في الدّنيا، يصبح أيّ شيء تقوم به بلا معنى، كأنّك كنت تعيش لأجلهم، وكلّ ما يمكنك فعله هو العمل، في وعلى أيّ شيء، أن تُبقي يديك وعقلك مشغولين فقط لتبعد تفكيرك عنهم، وإن كنت محظوظا، سيكون العمل شاقّا كفاية ليُتعبك وتنال قسطا من الرّاحة ليلا.

كانت تلك هي إستراتيجيتي في العمل الجديد،..في البيت الجديد. أحيانا، عندما كنت في الحرم الجامعي، أستيقظ صباحا على صوت المنبّه وللحظةٍ أحسّ أنّني في المنزل، ثمّ أنظر حولي ويبدأ عقلي في الاستيعاب وأدرك أين أنا بالذّات، ثمّ أبتسم مشتاقا لوالديّ وأحسّ بنوع من الرّاحة عندما أعرف أنّني سأراهما نهاية الأسبوع. يحصل هذا معي هنا أيضا، أستيقظ ولا أتذكّر أين أنا ثمّ عندما أتدارك الوضع، لا أشعر بالرّاحة على الإطلاق، لأنّني أعرف أن والداي ليسا هناك على أيّ مكان من فوق سطح الأرض، أمر متعبٌ أن تبدأ نهارك هكذا كلّ يوم.

هُم عائلةٌ لا أجد لهم وصفا سوى الطّيبة والتّقوى..دائمو الابتسامة في وجهي ويهتمون بي جيّدًا؛ هناك جدّيْن، عبد الله الّذي وظّفني

وزوجتهُ الّتي يدعوها جميع من في العائلة نانا، ثمّ هناك ابنتهما الّتي لا تخرج من غرفتها أبدا وعلى ما يبدو ابنتها قدر ذات السّابعة من عمرها والّتي تكاد، هذا إن لم تفعل بالفعل، تُفقدني صوابي.

قدر؛ مع أنّها تُشعرني كأنّني أحمقٌ كلّ الأوقات، إلّا أنّها مميّزة جدًّا، قليلة الكلام، كثيرة الابتسام، إلّا معي طبعا، تصلّي كلّ الصّلوات في وقتها حتّى الفجر وأحيانا تقوم الليل أيضا، تحفظ أكثر منّي من القرآن وتنامُ عليه أيضا، تنجذب للقرآن كما تنجذب اليرقات للضوء، ما إن تسمع القرآن حتّى تذهب أين يُتلى وتستلقي هناك حتّى تنام، جميلة ذات شعر شديد السّواد والطّول، عيون زرقاء و رموش كثيفة وطويلة وبشرتها بيضاء كالثّلج النّقي.

لطالما تساءلتُ كيف هو الوضع أو العيش داخل منزلٍ ووسطَ عائلةٍ ملتزمة، ولم أعتقد يوما أنّ إجابتي ستكون كالتّالي: كأنّك مُنتشٍ؛ ما إن تدخلَ للمنزل حتّى تحسّ بنسمةٍ باردةٍ متعطّرةٍ برائحة المسك تُنعش لك رئتيك بأنفاسٍ نقيّة كأنّ الهواء مُبارك، حتّى في الصيف ودون مكيّف؛ أكادُ أقسم مع أوّل خطوةٍ تخطوها داخل البيت حتّى تشعر بالرّاحة والأمان المطلق؛ مجرّد التّفكير به يُشعرك بذلكن ربّما لكثرة ما يُتلى من قرآن بين جدرانه، أو لقلّة ذنوب أصحابه، أو لكثرة صلاتهم وقوّة إيمانهم، أو كلّ ما سبق، لكن داخل ذلك البيت جنّة، جنّة لم أستطع الاستمتاع بها إلّا قليلا.

قدر، لأنّني لا أكتفي من التّفكير بها، تمكّنت مني؛ لا تبتسم لي، لا تلمسني، تهرب منّي، ولا تحبّ أن تكون في مكان واحد معي، جعلتني أعشقها؛ كلّ خليّة في جسدي، كلّ شعور منّي، أنا كلّي، أردت أن أحضنها؛ كنت أشعر أنّ حضنا واحدا منها سيشفي شيئا بداخلي. لا أدري إن كان شعورا وهميا كَبُر مع صمتها وبراءتها أم أنّني فقط بحاجة إلى عناق.

دخلتُ إلى غرفة أمّها مرّة واحدة لأستعير بعض الكتب، لم يكن هناك كتب مثيرة للاهتمام بالنّسبة لذوقي ولكنّني وجدت ما يُساعدني، كما أنّني أخذت كتاب طبخ، لا أعرف لماذا بالتّحديد.

في الحقيقة، لا أعرف من أنا؟ أين أنا؟ وماذا أفعل هنا؟ أستيقظ فجرا للصّلاة أتّجه مباشرة للصّالة أفتحها وأتمرّن فيها ثمّ عندما يبدأ المشتركون بالقدوم، أدخل في حجرة المالك وأقرأ؛ في المساء أنظّف وأعيد المعدّات إلى مكانها، أيّ شيء لأُبعد نفسي عن نفسي، لا أحسّ أنّني أنتمي هنا أو لأيّ مكان آخر على سطح الأرض، أردتُ النّوم بشدّة، لكنّ النّوم لا يبادلني الرّغبة، فكنت أطفئ الأنوار وأستلقي في الظّلمة، قد يبدو الأمر جنونيا ولكنّني أسمعهما أحيانا، يتكلّمان، يضحكان، يتشاجران بالعناد..وما كان يُثقل قلبي هو عدم استطاعتي البكاء، كنت أتمنى أن أُفرغ تلك المشاعر، كنت أتمنى أن أراهما في أحلامي، لكنّني لا أفعل أبدا، كنت أحسّ بالوحدة الشّديدة.

بما أنّ عبد الله يدفع لي أجري كلّ يوم، فكرت بالاستئذان غدا والرّحيل، مع أنّه لم يمض عليّ هنا سوى قرابة الشّهرين؛ صحيح لم أكن أريد العودة إلى عبد الغني، ولم يكن لي مكان آخر أذهب إليه، إلّا أنّني بشدّة أردتُ المغادرة، التحرّك؛ عبد الله أحبّني، ولم أكن يوما كاسر قلوب أو مخيب آمال سوى لنفسي. سمعتُ أصواتهم ممّا يعني أنّهم قاموا لصلاة الليل.

"ذلك ما أحتاجه، جوابا من الله" همست لنفسي.

انتظرت حتّى هدأت الأصوات ثمّ فتحت باب غرفتي وأخرجت رأسي لأرى إن كانت أضواء الحمّام مُطفأة. توضّأت وصليتُ ركعتي الوضوء؛ اجتاحتني رغبة في أن أقرأ القرآن، أن أرتله، أن أضيع بين سطوره ومعانيه، لكن لم يكن معي مصحف؛ تذكرت أوّل يوم لي هنا عندما ضيّفوني في غرفة الجلوس، كان هناك مصحف فوق التلفاز؛ لبستُ ملابسي وحضّرت حقيبة ظهري، ثمّ رتّبت الفراش ونزلت على أصابع قدميّ ساعيا لكلام الله. حملتُ المصحف وجلست على الأريكة ثمّ فتحته تلقائيا على سورة الكهف، وبدأت أرتّل.

في كلّ مرّة أرتل فيها القرآن، صوتي يبدأ منخفضا ثمّ دون وعي منّي يعلو شيئا فشيئا، كنت أبحث في كلّ آية عن جواب، هل أرحل إلى المجهول أم أبقى؟ لم أستيقظ من نعيمي ذلك، نعيم القرآن أين كلّ

المشاكل تختفي، كلّ الهموم، كلّ الدّنيا، حتّى مكانك الّذي تجلس فيه يختفي، تنسى جسدك الفاني وروحك وحدها هي الّتي تتلو، روحك تسمو..تعلو..لم أستيقظ من نعيمي ذاك حتّى فاجأني نعيم آخر، قدر ذات السّبع سنوات تنظر إليّ من بعيد بقَامتها القصيرة وشعرها المسدول ولباس نومها الظّريف..تفرك عينيها النعسانتين وتنظر إلي، لم أتوقّف عنّ القراءة وحاولت أن لا أُعيرها اهتماما كبيرا مع أنّه يستحيل عليّ ذلك لجمالها وبراءتها؛ بعد أن توقّفت عن فرك عينيها، وقفتْ هناك دون حراك تدرُسني، كقطّ أليف يأخذُ حذره منك قبل أن يقترب؛ توقفتُ عن منحها تلك النّظرات الخاطفة كي لا أخيفها، وعدتُ مركّزا على المصحف بين يدي..وما هي إلّا دقائق أو أقل حتّى تقدَّمتْ نحو الأريكة وصعَدَتْ عليها بشقّ الأنفس وبكلّ معنى للظّرافة تتسلَّقها؛ جلَستْ بجنبي مع أنَّ امتداد رجليها كان صغيرا مقارنة بامتداد عرض الأريكة، وبقيت تستَمع لتلاوتي دون حراك..لم أسمع حتّى تنفّسها.

لا أذكر شعوري ذلك الوقت، حاولت أن أفسر إحساس قلبي في تلك اللحظة لكنّني لم أستطع، أظنّه نفس الشّعور عندما يقولون "أطفو فوق السّحب" إلّا أنّ سُحبي كانت ثقيلة وعلى وشك الإمطار؛ مجدّدا، تفاجأتُ بها تضع رأسها على جانبي وفاجأتني أكثر بيدها الصّغيرة تضّم بها صدري تبحث عن الدّفء، هناك، في تلك اللحظة هناك، تلك اللحظة الصّغيرة، كان تفسيري لمعنى السّعادة، السّعادة الحقيقية، تلك

اللحظة هناك وأنا أشعر بدقّات قلبها وأنفاسها، وأشعر بيدها على قلبي، كان جوابي؛ وهناك، انفجرت أنا بالبكاء.

شيئا فشيء، آية بآية، وأنا أحصر دموعي، نامت في حضني منكمشة حولي ورأسها على يدي، كأنّها ابنتي وأنا أُرضعها من قارورة الحليب؛ لم أكن أستطيع التّلاوة، لم أكن أستطيع حتّى الكلام، توقّفت ولكن لم أغلق المصحف وخطفت نظرة إليها تحوّلت فيما بعد إلى شرود في وجهها الملائكي؛ كانت أجمل بكثير وهي نائمة، في حضني بين ذراعي؛ أردتُ لذلك الشّعور أن يدوم حتّى وإن لم أعرف تفسيرا له، ودموعي لم تعد صامتة مع أنّني حاولت، أحسستُ بوجهي كلّه مبتلا، انفجرت بكاءً لكلّ شيء لم أستطع البكاء عليه قبلا، فقدان أبي، أمّي، أهدافي وأحلامي، ضياعي...لأوّل مرّة في حياتي بكائي يُشعرني بالرّاحة بدل الضّعف. سألتُ الله جوابا وأعطاني الله إياه، بل وأراني إياه..أحسَّني به..جوابي كان البقاء..أن أبقى مع قَدَر ما أستطيع؛ جوابي كان قدر، قدر كانت قدري.

* * * * * * *

ليلة البارحة كنتُ أقوم الليل كعادتي مع قدر الّتي غلبها النّعاس لاحقا فنامت على سريري، ثمّ لم أدرك الأمر حتّى اختفت. خرجت إلى الرّواق لأرى إن كانت في الحمّام فسمعت قرآنا يُتلى من أسفل الدّرج

وعرفت أنّ ابنتي ستكون هناك؛ مع أنّها تنام على القرآن دائما، إلّا أنّها أوّل مرّة أراها فيها تقوم من نومها لتذهب وتنام مجدّدا أمام تلاوة القرآن، ولأوّل مرّة أراها تنام في حضن غريب، الغريب الّذي تقول عنه أحمق، ولأوّل مرّة أرى رجلا يبكي في ليلة أكثر ممّا بكيت أنا في حياتي وبتلك القوّة؛ لم يكن الأمر مخيفا بالنّسبة لي، لأنّ وجهه كان يتّسم بملامح العاطفة والحزن والضّغط، كأنّ لديه سببا للبكاء، لكنّني لا أعرف علاقة قدر بذلك، كلّ ذلك جعله غامضا بالنّسبة لي كأنّه كتاب لن أقرأه أبدا، مع أنّ ابنتي كانت نائمة على حضن رجلٍ انفجر باكيا فور نومها إلّا أنّني كنت مرتاحة نوعا ما وسعيدة بشكل غريب.

كانت أوّل مرّة أراه فيها، وكان تماما كما تخيّلته من مواصفات أبي، نحيل نوعا ما وطويل، عيناه الكبيرتان جعلتا وجهه يرتدي حلّة من اللطف والبراءة وقليل من الطّفولية وإن كان ذو لحية. لقد مضت عليّ سبعة سنين منذ أن رأيت بشريّا غير والداي وابنتي..كنت قد كرهت النّاس لما فعله بي ذلك الذّكر وأمّارته بالسّوء إيناس - سامحهما الله - وكنت قد كوّنت في عقلي صورة لكلّ البشر على أنّهم وحوش ذوو جلد آدمي، لكنّ سراج الدّين كان أمرا مختلفا لأنّني لم أصنّفه من البشر..لم يكن أبيض البشرة تماما لكن هناك نورٌ تستطيع أن تراه يضيء بين ملامح وجهه..تستطيع الشّعور به حتّى..وأحببت، بل أردت أن أؤمن أنّه نور الإيمان فيه..نور الأخلاق والقرآن.

الحياة غريبة، أحيانا ننظر للواقع من عين الحاضر فنرى أنفسنا نركض في دائرةٍ لا مخرج منها، نفس اليوم يُعاد ونفس الروتين؛ تألف الأمر لدرجة كبيرة تجعلنا نظنّ أنّنا لا نكبُر سنّا ولا نهاية قادمة. أبي يشيخُ أمام عيني. أمّي أصبحت طريحة الفراش أكثر ممّا هي خارجه ولكنّها دائما تدّعي الصّحة؛ ابنتي قدر لا تعرف من الحياة سوى أصلها، عبادة؛ أخشى اليوم الّذي ستسألني فيه عن أبيها، أظنّ أنّ ما أحاول قولهُ هو أنّني أخشى المستقبل، أو الزّمن، الوقت يُسرق منّا بكمّيات هائلة لا تعوّض، أخشى أن يأتي اليوم الّذي أضطر فيه للعمل في صالة أبي تحت أنظارهم وعلى مسامع أقوالهم وأحكامهم وتحرّشاتهم فقط لأعيل أمّي وابنتي، أخشى أن تتغيّر ابنتي وأدعو الله دائما أن يبقيها نعمة كما جعلها أوّل مرة..الخوف يقتُل.

أحيانا ننظر للواقع من عين "المحتّم"، كلّنا سنموت، إنّنا نحتضر الآن، وإن أحسنّا العبادة فسنلتقي مجدّدا ولن نفترق بعدها أبدا، لكن مع هذا الأمر المحتّم، أجد نفسي أنانيّة لرغبتي في الموت قبل أن أرى أيًّا من مخاوفي تتحقّق، ثمّ أحتقر نفسي لرغبتي تلك؛ سبّبتُ الكثير من الألم لوالديَّ وموتي أوّلا سيقتل كلّ سببٍ هما صامدان لأجله، يقاتلون لأجله؛ صحيح أنّي أصلّي الصّلاة في وقتها، أرتدي النّقاب، لا أستمع للموسيقى، أقوم الليل وأقرأ القرآن ليلا ونهارا، فالأبناء لوالديهم إمّا دُفعة لهم للجنّة أو دُفعة للنار، وصحيح أنّني في هذا الأمر أفضل منْ كثير منَ

الفتيات، لكن عندما يتعلّق الأمر بمن تحب، هذا لا يكفي، مهما فعلت، الأمر لا يكفي أبدا.

منذ تلك الليلة وسراج الدّين يقرأُ القرآن، وقدر كلّ ليلة تنام في حضنه؛ لم يتغير شيء فيها في أوقات النهار، لا تزال تتجنَّبه ولا تزال متيقّنة أنّه أحمق، كأنّها لا تعرف ماذا يحصل بينها وبينه ليلا، كأنّها تتخدّر بالقرآن وعندما تستيقظ لا تتذكّر شيئا؛ هو أيضا لم يتغير، لا زال سراج الدّين الّذي دخل عتبة بابنا أوّل مرة، لا زال نفس الشّاب الخجول الكادح في العمل، بعض النّاس لا يتعوّدون بسرعة.

لقد أنهى قراءة كلّ الكتب الّتي استعارها منّي، حتّى كتاب الطّبخ الّذي لا أرى لحدّ الآن لما كان مهتمًّا به، أنا لم أنته من كتاب واحد من كتبه وتلك نوعا ما إهانة بالنّسبة لي.صحيح أنّ قراءة الكتب ليست مسابقة ولكنّني حسّاسة عندما يتعلّق الأمر بها، خاصّة عندما يهزمني شابّ يعمل طوال النهار ولا يضيء ضوء غرفته للقراءة ليلا..كيف يجد الوقت لذلك؟!

الفصل الخامس

طبعا أحببتُ من قبل، أحببت والداي أكثر ممّا ينبغي، أو أقل بكثير نظرا لمعنى كلمة "والدين"، لكنّني لم أعتقد يوما أنّني سأحب غريبا لدرجة أنّني سأتخلّى عمّا أحبّ لأجله..بل سأضحي به نظرا لما تعنيه لي الكتب. أحبّ قدر جدًّا لدرجة أنّني سأستعمل ما جمعتهُ من أجري اليومي لأشتري لها ما يجعلني أتقرّب إليها عوضا عن شراء أيّة كتب جديدة.

- ماذا الّذي تفعله يا سراج الدّين؟ -سألني عبد الله-

- لقد لاحظت فجوة في الحائط وأنا متأكّد أنَّ فأرا بادلني التّحيّة منها، لذا أنا أغلقها، نحن لا نؤجّر غرفا بالمجّان، صحيح؟

ضحك عمّي وقال:

- يا بني، أنت تحرجني؛ نحن لا ندفع لك ما يكفي وأنت تقوم بالكثير.

- لا عمّي، لا إحراج في ذلك؛ لديّ الوقت، كما أنّني أحبّ ذلك نوعا ما.

- لا أعرف كيف سأكافئك يا ابني

- لا داعي، لكن يمكنك أن تسدي لي معروفا

- طبعا، أذكر ما تريد

- قدر..

- ما بها؟

- أريد أن أعرف ماذا تحب، حلويّاتها المفضلة أو ألعاب؟

- القرآن، لكنّني أظن أنّك تعرف هذا بالفعل

- نعم، هذا ما يقربني لها بالليل، ولكن بالنّهار، لا تزال تتعامل معي كغريب

ابتسمَ وقال

- نعم، إنها تقول أنّك أحمق

- أعجبتني كلمة غريب، لكن..أحمق؟

- هي لا تهين أحدا، لذا أنا متأكد أنّك تعجبها كثيرا، لهذا تدعوك هكذا، لكي نعتقد نحن العكس

- هذا مطمئن؛ أريد أن أتقرّب منها أكثر، ماذا تحب؟ ماذا يعجبها؟

- سراج الدّين، هي ليست طفلة عاديّة. في صغرها لم تتعبنا ولم توقظنا ليلا ولم تبكي حتّى، وعندما كبرت لم تطلب شيئا ولم تقل يوما أن شيئا أو أكلا ما يُعجبها؛ نحضر لها الألعاب فتلعب بها، لكن ليس لحدّ الإعجاب، فعندما تسمع القرآن أو يحين موعد الصّلاة أو عندما يكون بجنبها أحد يصلّي، تترك اللعب. حتى الحلويات، تأكل ممّا أحضره لأمّها ولا تطلب منها شيئا، تلك الفتاة رِزق من الله، نعمة حصلنا عليها بعد صبر من بلاء عظيم.

- بلاء عظيم؟

- سأخبرك إذا نجحت بنيل إعجاب قدر وجعلها تظهر حبّها إليك لنا.

- هل هذا يعني أنّك تسمح لي بالمحاولة؟

- نعم، سيكون ممتعا للمشاهدة.

رغم ضحكة عبد الله المكبوتة، إلّا أنّني كنت أعرف ما ينتظرني، على الأقل هذا ما ظننته. بدأت الأمر بدمية باربي صغيرة لها. ظننت أنّها ستعجبها لأنّها تشبهها..ذات شعر طويل وعينين زرقاوين..وضعتها في علبتها أمام غرفة أمّها بعد صلاة الفجر. عندما عدت ليلا وجدت الدّمية معلّقة بمقبض بابي برباط حذاء..مشنوقة والعلبة ساقطة على

الأرض..جعلتْ المشهد يبدو وكأنّ الدّمية انتحرت. فاجأني ذلك...نزعت الجثة...أقصد الدمية ،ودخلت غرفتي. بعد مدّة طرق عبد الله الباب فأذنت له بالدّخول فدخل ضاحكا:

- هل تلقيت الرسالة؟

- نعم، وكانت واضحة جدا؛ بصراحة لقد أرعبني الأمر

- وأنا أيضا، صدّقني

- من أين أتى هذا؟

- سألتها فأجابت أنّها فكرة من كتاب طالعته مع أمّها

- حتّى في الكتب، على الإنسان أن يحذر ممّا يقرأه أبناؤُه.

ضحك وقال:

- أوافقك الأمر؛ أردتّها أن تنزعها لكنّني أردت أن أرى ردّة فعلك...لا تقدّر بثمن.

- إذا كنت تقصد أنّني سأنام والباب مغلق من الآن فصاعدا، نعم.

- إذن، هل تستسلم؟

- لا، لقد بدأت للتّو. لماذا أنت مهتم؟

- حسنا، أنا والسّيدة قررنا تحويل الأمر إلى مباراة؛ أنا أقول أنّك ستفشل وهي تقول أنّك ستنجح

- لا أصدق أنّك ضدي!

- لا أصدق أنّك تحاول التقرّب من قدر..أنظر للبداية!

- البدايات دوما أصعب

- لماذا تحاول التقرّب منها على أيّة حال؟

- لا أدري، إنّها تشعرني بالسّعادة، بنوع من الرّاحة. تعطيني معنى لحياتي

- حسنا، استمتع بوقتك، لكنّك تُدرك أنّها ستكبر يوما ما ولن ترضى بقرب غريب، صحيح؟

كان محقا وآلمني ذلك؛ لم أكن أريد التقرّب من شخص ثمّ أفارقه من جديد، لكن معها هي...كان الأمر يستحق العناء. ابتسمت وأجبته:

- أدرك ذلك جيدا، لكنّني لن أعيش لأراها تكبر

لم أستطع النّوم تلك الليلة، فالحقيقة المرّة تؤلم؛ إن كبرت قدر فستراني كغريب وتُعاملني كما تفعل أمّها. لن تكلّمني أو تقضي الوقت

معي. لن تنام في حضني..لكن سأبقى دوما بجانبها إن احتاجت إليّ..ذلك وعدي.

جرّبتُ بعد ذلك الكثير من الهدايا والطّرق لكن لم يحدث شيء؛ كنت في الليل جليسها وفي النهار عدوّها؛ جرّبتُ الأساور والقلائد والخواتم البلاستيكية، جرّبتُ الألوان فلوَّنتْ مِقبض بابي، جرَّبتُ العجين فكتبت به "محاولة جيّدة" في منتصف بابي، جرّبتُ كتب ألعاب الذّكاء المليئة بالكلمات المتقاطعة والألغاز، فاستعملت الأحرف للصق كلمة "أحمق" على بابي..كلّ شيء يعود على بابي..

* * * * * * *

عليَّ أن أكون صريحة، تلك الحيلة الّتي قامت بها ابنتي على الدمية أرعبتني كثيرا؛ قرّرتُ أن لا أقرأ أمامها ذلك النوع من الكتب بعد الآن. لكن من جهة أخرى، أشعرتني بالفخر ولن أخاف عليها من أيّ ذكر، بالأحرى، سأخاف عليه؛ لا أُنكر أنّني وأمّي وأبي أقمنا نوعا ما مسابقة، كالعادة أنا مع أبي؛ لم أكن ضمن المسابقة ولكن بعد أن ضحكنا بشدّة على الدّمية المشنوقة قرّرت الدخول فيها.

شعرت بقليلٍ من السّعادة لمَّا أخبرني أبي أنّ قدر نوعا ما تُساعد سراج الدّين في تخطّي عقبات حياته. لم أكن أدري كيف، لكن ينتابني

شعورٌ بالرّاحة والطمأنينة تّجاهه حتّى وإن كان لا يزال كالكتاب المغلق بالنّسبة لي.

ابنتي تطيعني جدًّا وتحبّني، ليس كحبّ أمّ فقط بل أكثر، تحبّني كأنّني الشّخص الوحيد الّذي تعرفه في هذه الدّنيا، وفي ذلك نوع من الحقيقة؛ طبعا، بما أنّها تُطيعني، لن أجعل مهمّة سراج الدّين سهلة، أنا لست شرّيرة أو لئيمة، ولكن هذه متعة لا تأتي كثيرا هنا ولن أجعلها تنتهي بسهولة.

ذاك الشاب لا يستسلم أبدا؛ لقد حاول كلّ يوم من أيّام الأسبوع الماضي، قصص ملونة، ألوان وعجين، ألعاب وكتب أطفال، ولكن قدر كانت تعيدها دوما لباب غرفته مع رد من نوع ما، كنت أساعد بالتّأكيد، فلولا مساعدتي لكانت الكلمة الوحيدة الّتي سيقرؤها على باب غرفته هي كلمة "أحمق".

عليَّ أن أعترف بأنّني أعتبر هذه المسابقة لعبة، وكذلك قدر، لم تكن ترفضهُ لأنّها لم تعجبها هداياه، لكنّها ترفضه للمتعة الّتي نحصل عليها نحن..بل كانت تلعب بما يضعه لها فجر كلّ يوم إلى حين اقتراب موعد عودته ليلا، ومع أنّني أستمتعُ إلّا أنّ ذلك آلمني؛ كان شعورا جميلا أن يهتم شخص غريب بابنتي وأنا أراها تبتسم أكثر وأكثر، حتى عندما تسمعُ خطواته فجرا أمام باب غرفتي تذهب وتقف هناك خلف

الباب كطفلة صغيرة كما هي مُنتظرة لتعرف ماذا سيضع هذه المرّة، لم أرها تتصرّف كطفلة صغيرة يوما، بهذه العفوية والطفولة؛ ربّما هو الحنان والحبّ الّذي تفتقده في الأب، مع أنَّ أبي لا يحرمها من شيء، إلّا أنّه ليس نفس الشيء، ولن يكون أبدا.

مع أنَّ هذه المسابقة أعادت فيَّ لحظات طفولة فقدتها، إلّا أنَّ ابنتي أَوْلى، لذا قررت أن أخفف قليلا عن سراج الدّين، حتّى إن كان ذلك يعني خسارة المباراة ضدّ أمّي. أخبرت أبي أن يقترح عليه إحضار حلوى بذوق "الكوكاكولا" فلقد كنتُ مجنونة بها في صغري ولا زلت، لكنّني لا أدري لما لا أرغب بها مثلما كنت، لعلّي نضجت أو أنَّ المشاكل الكبيرة في الحياة تمنعك من الاستمتاع بالأشياء الصّغيرة الّتي تسعدك، ومن يدري، بما أنَّ قدر ورِثت كلّ شيء من عندي، لعلّها ورثتْ حبّي لها.

لم يتأخر ولو بيوم، تلك الليلة أتى أمام باب غرفتي وبقي واقفا هناك، أدركت أنّه لن يقوم بوضع الهدية بل سيقوم بخطوة جريئة.

- قدر، هل أنت هنا؟ -طرق الباب ثلاث مرّات-

انتفضتُ من فراشي وذهبت خلف الباب مع قدر وهي تنظُر إليَّ منتظرة اقتراحي بأيّ ردّ أو فعل، فنهضتُ بسرعة مجدّدا وأحضرت كرّاسة وقلم أكتب فيها الرّدود وقدر تردّدها.

- نعم؟

- هل يمكنني الحديث معك؟

- ماذا تريد؟

- وجها لوجه

- لا

صحيح أنّني قلت سأخفف قليلا عليه، هذا لا يعني أنّني لا أستطيع أن أحظى بمرحي.

- حسنا، لديّ هنا حلوى بذوق الصّودا، هل تريدين بعضها؟

- وماذا تريد بالمقابل؟

- عناق

- وقح!

ضحكتُ في صمت بشدّة حتّى أحسست بقلبي سينفجر ووجهي يحمرّ. قالتها كأنّها محترفة، حتّى هو وضحك قليلا.

- حسنا، قبلة في الخد

- مقزز

- ما رأيك بابتسامة من عندك لي أنا؟

فكرتُ قليلا في هذه الأخيرة ثمّ وافقت. أومأت لها برأسي لتقول "نعم" ولكن قبل أن تفتح الباب أحضرت مرآة صغيرة ووضعتها مقابل الباب لأرى انعكاس صورته عندما تفتحه؛ عندما فتحت الباب، فَتَحته بوجهٍ لا يبدو أنّه ابتسم في حياته ولا أنّه سيبتسم في وقت قريب. كان يحمل في يده كيسا كاملا من الحلويات؛ بعد مدّة قصيرة من تبادل النّظرات بينهما، ابتسمت على حين غرّة ثم أعادت عبوسها ومدّت يدها ليعطيها الحلوى.

- هذا غش - قال لها بابتسامة-

انحنت للخلف لترى موقفي من هذا، فمنحتها الموافقة؛ نظرت إليه ثمّ ابتسمت ابتسامة خجولة وجميلة ولكن في نفس الوقت سعيدة، كأنّها تعنيها حقًّا. راضيا بها، حمل قطعة حلوى واحدة من الكيس وأعطاها لها.

- ما هذا؟

- حلوى

- واحدة؟

- نعم، القطعة بابتسامة واحدة. كلّما تريدين المزيد، تعالي وابتسمي لي

- ألا تعلم أنّ معظم حوادث اختطاف الأطفال تبدأ بقطع الحلوى؟

- لا، لم أكن أعلم..كنت آمل أن تصفيني بالبخيل أو الأحمق، لكن هذا...مستوى جديد بالنسبة لي

بالنسبة لي أيضا، لأنّني لم أخبرها أن تقول هذا، أنا مندهشة بقدره تماما. أخذتْ قطعة الحلوى،ونظرت في عينيه تماما.

"بخيل"

قالت له ثمّ أغلقت الباب. نظرتْ إليَّ وكأنّها تذكّرت شيئا ثمّ فتحتْ الباب من جديد وخرجتْ له بينما كان هو في طريقه لغرفته وعادت ومعها أربع قطع حلوى وليس واحدة.

- ماذا فعلت؟

- ابتسمت له ثلاث مرّات إضافية

- لماذا؟

- لك ولجدّي وجدّتي

تلك هي ابنتي؛ أخذتها وعانقتها؛ لا تفكّر في نفسها فقط، غير أنانية من صغرها. أحيانا تتظاهر بالشّبع عندما لا يكون هناك خبز يكفي الجميع، أحيانا تتخلّى عن حصّتها من الفاكهة عندما يكون هناك نقص، كانت تلك ابنتي ولا أستطيع أن أصف مقدار الفخر أو السّعادة الّتي تُشعرني بها فقط هذه الكلمة، ابنتي، استلقيتُ في الفراش معها نأكل الحلوى ونستمتع بها، سقطتْ دمعةٌ منّي غصبا وأنا أراها بتلك السعادة تتلذّذ بقطعة حلوى، فأنا أمّها.

- لذيذة، أليست كذلك؟

- نعم، ولكن جدّي وجدّتي لا يعلمان بها

على وقع تلك الكلمات انضمّ إلينا أبي وأمّي

- ماذا يحصل؟ هل نحن نخسر؟ -سأل أبي-

- كالعادة -قالت أمّي-

نظرتُ إلى قدر وهي في عالمها الخاصّ تركضُ بلسانها وراء تلك القطعة وأنا أعرف أنَّ استمتاعها بها لم يكن بسبب الحلوى فقط بل بسبب سراج الدّين. .أعدتُ نظري إلى أبي وأجبته:

- لا، نحن نفوز

فهم الأمر دون داع للشرح وتقبّله بابتسامة؛ أطعَمَته أمّي قطعته الخاصة وقضينا الوقت نتسامر ونحكي؛ لم أستطع سوى التّفكير بما يشعر به سراج الدّين الآن، هو في عالم آخر في غرفته وحيدا، وأنا في عالمي في غرفتي مع أبي وأمّي وابنتي..بعد أن أدركتُ مدى سعادتي، حمدت الله على نِعمهِ ورضيت بقدره، ثمّ أدركت أيضا، سراج الدّين يحتاج لابنة أكثر ممّا تحتاج قدر لأب، لأنّها بطريقة ما تُحسُّه بالحنان وطعم الحبّ الّذي فقده..ربّما من تلك الليلة الّتي نامت فيها على حضنه وأيقظت فيه ما أطفأته المآسي، أو ربّما خلف وجهه البريء ألف قصّة لم تُحكَ بعد؛ منذ ذلك الحين، كلّما يكون في المنزل، أُلمّح لِقَدر بمدى اشتياقي لطعم تلك الحلوى، فتذهب وتحضر أربعة مقابل أربعة ابتسامات، أتمنّى حقًّا أن يبتكر خُططا تقرّبه إليها أكثر وأن لا يتوقّف أبدا عن المحاولة.

الفصل السادس

لا أدري كم مضى عليّ هنا، لكن يبدو كأنّني البارحة فقط بدأت العمل. لا أدري إن كنت أنا من يعيش في الماضي لدرجة أنّني لم أعد أحسّ بالحاضر، أو أن الوقت أصبح يطير محقّقًا لإحدى علامات السّاعة المذكورة، أو أنّني شغلتُ نفسي كثيرا كلّ يوم لدرجة أنّني لم ألاحظ الوقت ينسلّ من بين يدي...أو أنّني ببساطة لم أعد أهتم.

تلقيت رسالة من عبد الغني يقول فيها:

"السلام عليكم ورحمة الله؛ بني، لا أعرف كيف حالك هناك، فأنا أعرف أنّك نوعا ما فاشل في علم الاجتماع؛ أنت في حيّنا هذا منذ سبع سنوات ولم تصنع فيه صديقا واحدا ولم أرك يوما تسهر مع أحد غيري، لذا أريدك أن تعرف جيدا وتتذكر دوما أنّه سيكون لك أهل ومنزل هنا.

عائلتي تحبّك حتى قبل أن تعرفك؛ لا أدري إن كنت أنت بشر ا أو ملاكا، ولكنّني أعرف أنّك جعلت والديك فخورين بك جدًّا.تخيّل، ابنتي رفضت الزّواج دوني، دون أبيها، وبما أنّنا اجتمعنا، عقدتُ خطبتها وأنت مدعو طبعا للزّفاف؛ يبدو أنّهم

لم ينسوني بعد كل شيء، شعور جميل حقًّا أن تكون محفورا في عقول وقلوب الآخرين بالخير أينما كنت أو كيفما كنت، شعور جميل حقًّا أشاركك إياه لأنّك تعيش فينا ومنّا كلّ يوم.

بالمناسبة، لقد أصبحت قيّم المسجد، وحفيدي الأكبر، الذّي يكتب هذه الرسالة الآن، أصبح لا يفارقني وبجنبي في كلّ صلاة أو عمل؛ غريب كيف بدأ النّاس يحترمونني لمجرّد أنّني لم أصبح متسولا..ففي النّهاية، ألسنا جميعنا كذلك؟

لقد فتحتُ المطعم ووسعتُ فيه ليشمل الرّواق وأعدت تفصيل المنزل، بعون الله ثمّ أبنائي، لإضافة غرفة صغيرة أخرى فيه؛ العمل جيّد، بل ممتاز بفضل الله تعالى؛ كلّ أبنائي يعملون فيه، منهم حتّى من يعمل نهارا في وظيفته وليلا في المطعم معي، وأنا سعيد لأخبرك أنّنا لم نكن يوما أكثر سعادة؛ الكلمات لا تستطيع وصف ما فعلتَهُ لي ولعائلتي، لا يمكنني حتّى أن أصف ما أشعر به، لقد أعطيتَني منزلا وأهلا، لن أموت وحيدا وذاك كان خوفي أنا، وفي كلّ صلاة وكلّ دعاء أسأل الله أن يجمعك بأهلك في الفردوس الأعلى كما جمعتني بأهلي في الدنيا.

أعلم أنَّ هذه الدّنيا لا تهمُّك ولا يجب أن تهمّ أحدا فهي زائلة؛ لا مالَ ولا أجرَ في الدّنيا قد يمكِّنُني من ردّ المعروف لك، لذا بدل ذلك نحن نقدّم الأكل مجانا للمتشردين وعابري

السّبيل والفقراء، ولقد تصدّقت بملابس أبيك وأمّك عليهم ووضعت الماء خارجا..كلّ هذا صدقة لك ولأهلك.

يسألني الجميع عنك بدافع الفضول؛ أعلم أنّهم كانوا يكرهونك بسبب غيبة بعض البشر، وكلّما يسألونني أجيب بفخر عمّا فعلته لي ولعائلتي؛ هم يسألونني كلّ يوم إن كنتُ قد سمعتُ عنك أخبارا جديدة، كرهوك بسبب كلام النّاس وأحبوك لكلامهم، ولو عرفوك ولو بقليل كما عرفتك لعشقوك؛ لا أُنكر أنّني أشتاق إليك وأشتاق إلى الحديث معك. رغم فارق السّن إلّا أنّني أعتبرك كأغلى صديق حظيت به، حتّى أبنائي يشعرون بالغيرة لحديثي عنك كلّ يوم؛ لم تكن كثير الكلام ولكنّك كنتَ تفعل الكثير، كنتَ تشاركني أكلك وملابسك، أهلك ومنزلك، ابتسامتك الّتي ألقاك بها كلّ صباح تنير يومي أكثر ممّا تفعل الشمس، حتّى في أيّام الشّتاء عندما يقطعون عنكم التّدفئة، كنت تخرج للبرد وتجلس معي أمام نار الحطب لكي لا أشعر بأنّكم تخلّيتم عنّي.

صدقني ابني، أعلم أنّني أطلت الكلام. ذلك لأنّني مهما قلتُ ومهما فعلتُ فلن أجازيك لا أنت ولا عائلتك عندما آويتموني كفرد من العائلة، أو عندما أعدتَ لي عائلتي، لو ترى دموعي لعرفت مقدار ما أشعر به من مشاعرٍ لا أفهمها حتّى حفيدي

يحبّك ويطلب منك أن تعذره على خطّه فهو مبتدئ في الكتابة، يجب أن يرى خطّك، سيقتنع أنّه أفضل بكثير ممّا يعتقد.

ملاحظة: اِحرص على أن لا تفوتك صلاة الجمعة في السّادس عشر من شهر مايو القادم.

لا أدري ما سأقوله في الختام فأنا لا أريد التّوقف؛ لذا سأختمها بالسّلام على أمل أن ألقاك في الدّنيا بخير قبل الآخرة في الجنّة بإذن الله.

السّلام عليكم ورحمة الله."

- لماذا تبكي؟ -فاجأتني قدر من خارج الغرفة-

- لم أركِ هناك، لابد من أنّني نسيت الباب مفتوحا. هل يمكنك إغلاقه؟

- هل بإمكاني الدّخول؟

- طبعا

دخلتْ وأغلقتْ الباب وراءها، وهذا شيء لم تفعله قبلا؛ استلقتْ بجنبي ووضعتْ رأسها على صدري وأنا كردّة فعل غير مقصودة، احتضنتها بيدي، لكنّني لم أصدق أنَّ قدر على صدري الآن دون قرآن.

- لماذا تبكي؟

- آه، صديق لي؛ جار سابق أرسل إليَّ رسالة

- هل هو بخير؟

نظرتُ إلى الرّسالة في يدي ولم أجد سوى الابتسام.

- نعم، في الواقع هو على خير حال والحمد لله

- إذًا هي دموع سعادة؟

- لا أدري، ربّما

- هل يمكنني أن أقرأها؟

- لا أظنّك ستكونين قادرة على فهم خط الكتابة

- أتركها عندي وسأتدبّر أمري

ظريفةٌ هي بجمالها، بقصر قامتها، بطريقة كلامها، بحيائها، كنتُ كالأحمق أتلعثم أمامها ولا أرفض لها أمرا، ربّما هي محقّة بشأني بعد كلّ شيء..أنا أحمق

- حسنا، أعيديها إليّ عندما تنتهين منها

- هل ستردّ عليه؟

- لا أدري

- لماذا؟

- ليس لديَّ شيء لأردّ به

- لديك نحن."قالت بسرعة وذهبت"

- ألا تريدين الحلوى؟

- آه، صحيح

استدارتْ وابتسمت لي أربعَ ابتسامات، ثمّ فتحت الكيس أمامها وأخذت أربعة قطع، وعندما كانت تهم بالمغادرة، نظرت في عينيَّ كأنّها تذكّرت شيئا، ثمّ أخذت قطعة خامسة من الكيس ووقفت على أصابع قدميها وطبعت على خدي قبلة..قبلة الحياة.

كانت ملائكية، ناعمة، لا ادري كيف، ربّما أنا حسّاس أكثر ممّا ينبغي إلّا أنّني أنزلتُ دمعةً فحاولت إخفاءها بابتسامتي لكنّها لاحظتها، فمسحتها بيديها الناعمتين وناولتني القطعة الخامسة وغادرتْ راكضةً ووجهها محمر؛ كانت البراءة تقطر منها، مشبّعة بها.

* * * * * * *

أعطتني ابنتي رسالةً لأقرأها لها؛ رسالة موجهة إلى سراج الدّين مِنْ ممّا يبدو أنّه جاره في منزله القديم؛ رغم أنّي عرفتُ منها الكثير عن قلبِ الشّاب إلّا أنَّ غموضه زاد؛ يبدو أنَّ هذا الشّاب أينما يذهب يترك أثرا جميلا في قلوب وحياة الآخرين؛ أشعر بالأسف لأنّ لا أحد يساعده بالمثل.

قرأتُ لابنتي الرّسالة وأنا آكل معها الحلوى الّتي أحضرتها لي؛ لا أدري لمَ بَكِيَتْ، أو حتّى إن كانت لاحظت نفسها تبكي، فصوتها عاديّ وتصرّفاتُها عادية؛ لم أمسح دموعها، أعطيتها الرّسالة وأعادتها لسراج الدّين ثمّ عادت إليّ كأنّ شيئا لم يحصل.

لابدّ أنّ الأمر غريب، الحياة كلّها غريبة، طرق الربّ غريبة، أن يخسرَ عائلته كلّها في أقلّ من أسبوع، أن يعيش دون أقارب، أن يرحل عن حيّه الّذي تعوّد عليه وينتقل لحيّ لم يألفه ويعيش بين أهل لا يعرفهم ويعمل وسط أناس يتكلمون فيه غَيْبا ويصنعون الافتراضات عنه، أنا لم أكن لأحتمل ذلك، خاصّة بين أناس يحملون هويّة الإسلام ويتصرفون دونها. أنا بكلّ مشاكلي سعيدة، ليس فقط بسبب رضاي بقدر الله ولكن برِضا الله عنّي أولا، ولا أستطيع تخيّل العيش مثلهم، لأنّ كلّ ذنب يزيد البعد عن الله، والبعد عن الله يزيد البعد عن الجنّة، وكلّ هذا يخلقُ اختناقا وضيق نفس وإحساسا بالضّياع، لكن رغم عِلمهم بهذا، لا يزالون في عدائهم، في عصيانهم، في علاقاتهم المحرّمة الّتي لا تنجح أبدا لأنّ

الله لا يُبارك في شيء حرّمه، في كلامهم الفاحش وملابسهم الملوّنة الملوّثة، غيبَتهم ونميمتهم وكرهِهم وفوق كلّ هذا..جهرهم بكلّ هذه الذّنوب؛ لا أدري متى تحوّل المسلمون وأصبحوا بهذا الغباء الّذي سمح للعدو أن يدخل في عقولهم ويسكن في قلوبهم على مدى الوقت؛ منذ أن كان الجميع يتّبعون تقاليدنا وعاداتنا، أصبحنا إمّعة لهم في لباسهم وكلامهم وطريقة عيشهم، وحتّى الشّباب أصبحوا يكوِّنُون عصابات كما في الأفلام، ويخلقون العداء بينهم...منذُ أن كان المسلم يفدي أخاه بروحه وماله، أصبح يطعنهُ بدم بارد لأجل فتاة أو تصادم بالأكتاف أو أنَّ أحدهم وطأ على عقب حذاء الآخر، نحفظ الغناء ونبكي عليه ولا نحفظ آية أو حديثا ولا نبكي عليهما، فعلنا كلّ شيء حرام، واختلقنا الأعذار والأسباب لجعل الحرام حلالا، ثمّ أسميناه حرّية شخصية، والكلام البذيء حريّة تعبير نسمعها بين الشّباب والذّكور والإناث، الكبار والصّغار بكلّ اللغات..فإن كان الحرام هو ما يجعلنا تعساء، والحرام هو ما جعلناه حرّية؛ إذن، فخسارتنا للسعادة، تعاستنا، هي بسبب سعينا نحو حرّيتنا، فلمَ نلوم الجميع وكلّ شيء غيرنا؟ الحزنُ حرّية شخصية رضينا به لأنفسنا..خسارةُ الجنّة حرّية شخصية اخترناها بأنفسنا..وإذا خسرنا الجنّة، فنحن لم ولن نفوز بشيء.

الأمر يُحزنني؛ لا أدري لماذا، لقد أنعم الله عليَّ بقلب كبير يتحوُّل أحيانا إلى لعنة؛ لا أكره أحدا حتّى وإن كنتُ لا أحتمل أحدا، وأسامح

دوما، وأهتم دوما، لا أرضى الشّعور بالضّياع في الدّنيا والعذاب في الآخرة لأيّ أحد، أيّما شخص كان؛ في وقتٍ أصبح لا أحد يهتم بأحد، لا الجار بجاره ولا الأخ بأخيه، أنا فخورة لامتلاكي قلبا كبيرا يهتم، لكن معظم الأحيان..الاهتمام مؤلم..الاهتمام يقتل..لكن هل يستحق؟ ذلك أمر آخر.

هذه أول مرّة سأخرج فيها منذ سبعة سنين؛ قد يظنّ البعض أنّ الفترة طويلة بالنّسبة لشخصٍ قضاها في غرفة من أربعة جدران، لكنَّ الوقت يمر بسرعة. هل أنا خائفة؟ نعم، أنا مرعوبة، قلبي ينبض بسرعة، أشعر بالغثيان والخوف وكلّ عظمة في جسدي تطلب منّي العودة لغرفتي الهادئة النّظيفة المعطّرة المنعزلة، أشعرُ بالخوف الشّديد من أنَّ هناك شيء ما سيحدث، بعضُ الخوف من نظراتهم إلي حتّى وإن لم أكن أنظر إليهم، فسأشعر بأعينهم تأكلني حيّة، خوفا من أن أرى العالم قد أصبح أسوأ ممّا كان عليه منذ أن انعزلت عنه وتركته متّسخا قذرا ولا يرحم..وبالفعل قد فعل.

لم أكن لأخرج لولا أنّ الرّسالة الّتي وصلت لسراج الدّين قد حرصَت على حضوره لخُطبة الجمعة الموافقة لهذا اليوم؛ أردت أن أعرف السّبب..وها أنا، ولكن أن يكون الإمام يُلقي الدّرس والشّباب خارجا يلعبون "الدومينو" بالصّراخ والكلام الفاحش، أن يكون الإمام يخطب والبنات خارجا يتجوّلن بكعوب عالية وضحكات سافرة ووراءهم

شباب لا يستطيعون غضّ البصر..أن يكون الإمام يخطب والنساء هنا يتحدّثن عن الملابس والطّبخ ويرتدون ما يشاءون للصلاة..كلّ تلك المظاهر وأكثر ممّا رأت عيناي، جعلت العالم أكثر إخافة بالنّسبة لي وأكثر ظُلمة، فبالنّسبة لي، مسلمٌ لا يخاف الله، لا يخافُ القتل ولا الظّلم، وبما أنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهم ماتت قلوبهم لدرجة أنّ الإمام يخطب في أحبّ الأيّام إلى الله وهم هكذا..فلن يمنعهم شيء عن ارتكاب كلّ جريمة تُوسوسُ في رؤوسهم.

أتعرفون لماذا أحبّ المساجد؟ لأنّني ما إن أتوضّأ حتّى أحس بالنّظافة، نظافة جسدي وروحي، ما إن أخطو أوّل خطوة برجلي اليمنى داخل المسجد، حتّى أجد كلّ مشاكلي وأحزاني خلفي لا يمكنها الدّخول معي كأنّ هناك حاجزا يمنعها يُحرّم عليها ملاحقتي هناك، حتّى إن كنت أعرف أنّها ستكون بانتظاري عندما أخطو خارجا، لكنّني ما دمت داخل بيت الله، فلا شيء منها يهمّني، لا أخاف حتّى منها ولا الحياة، لأنّني في بيت ربّها.

الخطبة كانت عن شابّ منح منزله لمتشرّد كان ينام في حيّه؛ كان هذا الشّاب هو الوحيد الّذي يعامله كجار، بل كإنسان وليس كحيوان متشرّد؛ فوق كلّ هذا، جمع الشّاب هذا المتشرّد المدعو عبد الغني بعائلته، وبسببه أصبح لديه منزل وعائلة وعمل، زادت فرحة عبد الغني بحفيده من ابنه، وزفاف ابنته القريب التّي كانت على برٍّ عالٍ

بوالدها لدرجة أنّها رفضت كلّ خاطبٍ طرق باب الحلال عليها إلى أن عاد إليها والدها، مع أنَّ هذا الشّاب خسر عائلته إلّا أنّه منح عائلة أخرى فرصة بالحياة؛ قارنَ الإمام ناسَ هذا الزّمان بهذا الشّاب الّذي تمكن من حفظ أصله، ثمّ قام بالدّعاءِ له ولعائلته بالفردوس الأعلى مجموعين فيها من غير حساب ولا سابق عذاب؛ لم يذكر الإمام اسم الشّاب، لكنّه كان واضحا من هو، حتّى قدر بجنبي عرفت من هو، مع أنّه شابٌّ غريبٌ ولا يزال غامضا، إلّا أنّه دخل قلبي، بكلّ بساطة.

لست من النوع الّذي يحبّ الضّجيج. عندما رأيتُ بعضهنَّ يتراكضن إلى المخرج كأنّهن هاربات من حريق، أحسست بالأسف لأخواتي؛ لا يعرفن جمال الجلوس وفوائد أذكار ما بعد الصّلاة، لا يعرفن أنَّ الملائكة تستغفر لهن لقعودهن بعد الصّلاة، مؤسف كيف تحوّل المسلمون وتغيّرت المسلمات مع أنَّ الإسلام بقيَ على حاله.

لاحظت قدر عدم رغبتي في الخروج إلى هناك، إلى العالم الخارجي؛ تمنيتُ أن يكون هناك بابٌ سريٌّ يربط المسجد بغرفتي. كمسلمة، يجب عليَّ الابتسام حتّى إن لم يرَ أحد ابتسامتي، وتقبل الأمر الواقع والعيش معه إلى أن يحين موعد وفاتي، ولكنني كما قلت، قلبي كبير ويهتم، والأكثر من ذلك، لا أشعر بالسّعادة على الإطلاق خارجا، أشعر بالسّعادة عندما يكون النّاس نياما والهدوء مخيّما وأنا مستيقظة أصلّي وأحارب النّعاس وأدعو الله ساجدة. .أطلب منه ما أشاء وأبكي كما

أشاء، هناك فقط أشعر بالسّعادة، لأنّني أحسّ أنّني الوحيدة في العالم، محمية بمن لا أقوى منه..فقط في ذلك الهدوء المظلم، أحس بالنّور داخلي..أحس بالسّعادة.

الفصل السابع

اليوم بينما كنت أعمل في الصالّة، رأيتُ فتاة صغيرة خارجا تقفز على رجل واحدة ذهابا وإيّابا؛ بدا الأمر تافها بالنّسبة لي، لكن بالنّسبة لها كانت تقوم بعمل خارق، تتحدّى نفسها، لكم من الوقت تستطيع أن تبقى على تلك الحال، كأنّ القفز على رجل واحدة سينقذ حياتها أو يجعلها أفضل، كأنّه الشيء الوحيد في عقلها، اشتقتُ لتلك البراءة، لتلك الأيّام البريئة، يوم كانتِ الأمور أبسط، لا مشاكل، لا هموم..لا عمل..لا مال..لا مسؤولية، لا غد، لا موت، فقط البساطة؛ رؤيتها هكذا جعلتني أشتاق لقدر، فهي كانت أحيانا تقفز برجليها معا على الدَرَج صعودا، درجةً بدرجة، وكان الأمر يجعلها سعيدة جدًّا.

فكرتُ بأمر قدر، وكيف أنّها تحب مساعدة النّاس..تقوم به كجزء من طبيعتها، من جيناتها؛ أردتُ استغلال ذلك لكسب بعض الوقت معها؛ قدر، عندما أذكر اسمها أشعر بالسّعادة، وكلّما أُسعدها أشعر بسعادة أكبر، وليتها تعلم كم سأكون سعيدا لو تعتبرني أخاها الأكبر أو عمها أو خالها، لتقصدني وقتما تحتاج الحديث، لتقصدني عندما تحتاج المال، لتقصدني عندما تريد المشورة والنّصيحة، لا أدري ما هذا

الشّعور، فأنا لم أشعر بهذا النّوع من الحبّ قبل ذلك، ولا أدري إن كان أحد قد فعل.

- السّلام عليكم، هل استدعيتني؟

- وعليكم السّلام ورحمة الله تعالى وبركاته. نعم قدر لقد فعلت. أنا أحتاج مساعدتك

- في ماذا؟

- هل تذكرين تلك الرّسالة الّتي وصلتني؟

- نعم، من ذلك الرّجل الّذي تحدثوا عنه في خطبة الجمعة

- هل كنت هناك؟

- نعم، وأمّي كذلك

- خرجت أمّك من المنزل؟!

- نعم، خصيصا لخطبة الجمعة تلك، فهي من قرأت لي الرّسالة، هل رددت عليه؟

- لا، ليس بعد

- لماذا؟

- لا أدري، أنا أنتظر حتّى يكون لي شيء يستحق أن يقال

- أنت غريب

- لا مزيد من كلمة أحمق؟

- أحمق غريب، ماذا كنت تحتاج؟

- أريدك أن تضعي تلك الرسالة في إطار، أن تصنعي لها شيئا يحافظ عليها لأطول وقت ممكن

- هل يمكنني أن أزيّنها؟

- نعم

- ألونها؟

- نعم

- أضع عليها قصاصات؟

- نعم

كانت ظريفة أكثر ممّا قد يحتمل أيّ إنسان.

- يمكنك فعل أيّ شيء، وأخذ الوقت الّذي تريدينه، طالما أنّ الكتابة ستبقى واضحة، وتُريني التّقدم الّذي تحرزينه؛ موافقة؟

- نعم، أعطني إياها؛ هل يمكنني أن أسأل شيئا في المقابل؟

- طبعا، ما هو؟

- لا أدري، لكنّك تدين لي

وبهذه الكلمات غادرت غرفتي؛ تركتني مذهولا، عاجزا عن الكلام، عاجزا عن التّفكير؛ ما الذي حصل للتو؟ هل هي حقا في السّابعة؟ كأنّها بعمرِ وبراءةِ وتصرفاتِ طفلة في السّابعة ولكن بعقلِ وذكاءِ بالغ؛ أشعر كأنّني تعرّضت للاحتيال على يد طفلة..هل فاقتني ذكاءً فتاةٌ في السّابعة للتّو؟! لا أدري إن كنت أريد أن أقبّلها فخرا، أو أُقبّل الحائط، بجبهتي، بقوة، أو كلاهما.

في اللّيالي الأولى كانت تجعلُ من الرّسالة تحفةً فنّيةً في غرفتها وبعدها تأتي لتطلب رأيي، ثمّ أتت بأدواتها وأصبحت تزيّنها في غرفتي على الأرض بجانب الباب المفتوح على مصراعيه؛ كنت أستمتع بمشاهدتها بينما أتظاهر بقراءة كتاب؛ مستلقٍ على سريري أختلس النّظرات لأراها، بكل جمالها وبراءتها تكلّم نفسها، تكلّم الغراء والورق والألوان، أبتسم عندما تبتسم، أخاف عندما تستعمل المقص، لم تكن

لياليَ تمر بسرعة مثلما مرّت وهي معي، ولكنّي دائما أحس أنّ هناك خطب ما، شيء ما غير كامل، ناقص، لا أدري إن كنتُ سأعرف ما ذلك الشّيء النّاقص أبدا، أم أنّها طبيعة الإنسان بغير الكمال.

هل كنتم يوما في لحظةٍ سعيدة جدًّا لدرجةِ أنّكم أردتم أنْ تُجمّدوا تلك اللحظة لتعيشوها للأبد؟ مثلما كنت مع والداي، وأنا وأبي كنّا نزعج أمّي تارة ونضحكها تارة أخرى، مثلما أخذتهما لحمّامٍ معدني واستلقيا هناك لمدّة ساعتين لا يشعران سوى بالرّاحة، وأنا هناك أحس بأنّني أسعد إنسان..مثلما أخذت شهادة الباكالوريا وعانقني أبي أمام أنظار الجيران الحقودين، عناقا قويّا مليئا بالسّعادة والفخر وأمّي تضحك وتبكي دموع الفرح تنتظر دورها في العناق..هذه اللّيالي مع قدر جعلتني حقًّا أنسى مأساة وفاة والداي وأفكّر فقط بهما كأنّهما هناك في مكان ما..في المنزل الحقيقي، ينتظرانني.

قدر، كنت أعلم أنّها ستكبر، وهذه اللحظات ستصبح مجرّد ذكريات، لذا كان أمامي خياران، إمّا أن أستمتع وآخذ من هذه اللحظات أقصى ما أقدر أن أحمله في قلبي وعقلي، أو أتفاداها لكي لا تؤذيني مستقبلا، ولأنَّ الموت يأتي فجأة، قررت أن أستمتع بها، ففي النهاية، هي حلال، وستصبح ذكريات حلال..قد تؤذيني، لكنّني لن أندم عليها أبدا؛ كانت لحظاتي مع قدر سحرية، كأنّها تأخذني إلى مكان سريّ دون اسم..دون ذاكرة..دون واقع.

- ما رأيك؟

- هل انتهيت؟

- نعم، إذًا ما رأيك؟

- إنها رائعة

- هل يمكنني أن أعلّقها؟

- نعم، يمكنك ذلك

- هل يمكنني أن أريها لأمّي أولا؟

- طبعا

غلب عليها الهدوء لبرهة

- هل سترحل قريبا؟

- لا أنوي ذلك قريبا، لماذا؟ هل تريدينني أن أرحل؟

- لا، أريدك أن تبقى للأبد

- لماذا؟

- لأنّك تُسعد الجميع.

- حقًّا؟

- نعم..هذا ما قالته أمّي.

- وأنتِ؟

شعرَتْ بالخجل، وشعرْتُ أنّها تبحث داخلها عن جوابٍ يجعلني أبقى ولكن يبقيها عنيدة وبنفس طباعها، وبالطبع قد وجدته

- طالما هناك حلوى باقية، يمكنك أن تبقى

أحببت تلك البراءة، أحببت تلك الفتاة الصغيرة، أحبّك في الله قدر.

* * * * * * *

يبدو أنَّ سراج الدّين قد نجح في أخذ ابنتي منّي لعدة ليال، أحس بالغيرة؛ عليَّ أن أعترف، غرفتي موحشةٌ دونها؛ تستمعُ لقراءتي وأحيانا تحاول أن تقرأ أيضا، تحفظُ القرآن بتلاوتي لها، تنامُ في حضني وتقبّلني على حين غرّة وتعانقني..تجرّب أحذيتي وتتعثّر بها...أحيانا، تستلقي في منتصف الغرفة فاتحة يديها ورجليها وتتأمّل الثّرايا فوقها دون سبب ودون حراك وأنا استمتِعُ بمراقبتها؛ فوق كلّ هذا، هي مغناطيس

لوالديَّ، في لحظة تكون غرفتي هادئة ومسالمة، وفي لحظة أخرى تتحوّل إلى ساحة معركة وسائد، قدر دائما في صفّ جدتها وأنا في صفّ أبي، مع أنّنا نخسر معظم الأوقات، أحيانا أتمنّى لو أستطيع العيش في تلك اللحظات للأبد لكي لا أواجه المستقبل، لا أواجه الموت عندما يأخذُ ما أخذه من سراج الدّين، لكي لا تكبر قدر وتبتعد عنّي.

أعلم أنَّ الحياة لا توجد فيها خسارةٌ حقيقيةٌ لإنسان، الخسارة الحقيقية لإنسان تحبّه حبًّا جمًّا هي عندما يكون أحدكما في الجنّة والآخر في النّار، أو كلاكما في النّار، الخسارة الحقيقيّة هي خسارة الجنّة، لكن في الحياة، يبقى الألم غير محدود، عندما تعيش بقيّة حياتك دون شخص كان في معظمها، والذّكريات هي أسوأ ما في الأمر. عندما أتذكّر هادم اللذّات، عندما أتذكّر أنَّ الموت حق، أتمنى إمّا أن نموت كلّنا معا، أو أموت أنا قبل الجميع..لكنَّ هذا سيكون تصرُّفا أنانيا وجاحفا بحق عائلتي، أليس كذلك؟

منذ أن خرجتُ تلك الجمعة وأبي متحمّس وسعيد؛ يبدو أنّه يريدني أن أخرج من جديد، أن أخرج أكثر؛ يبدو أنَّ حقيقة خروجي كانت مرّة واحدة لن تتكرر بسبب الخطبة لم تقنعه؛ الحقيقة هي...الواقع ليس مكانا لطيفا على الإطلاق. دعونا لا ننكر الحقيقة، لو كانت لديك غرفة جميلة وهادئة على ذوقك، مليئة بالكتب الّتي تصلك إلى باب غرفتك مع طعامك، هل كنت لتغادرها يوما؟

- أمّي..

دخلت قدر ورمت نفسها في حضني

- هل كنت عند سراج الدّين؟

- نعم

- إنْ كنت ستتركينني وحدي كلّ هذا الوقت، فربّما يجب عليَّ إحضار قطّة

- هل بإمكاننا إحضار قطّة؟! -سألت بنظرة تعجّب على وجهها-

- كنت أمزح..لماذا؟ هل تريدين قطّة؟

- لا أمانع

فكّرت بالأمر، قدر تلعب مع القطّة على أرض غرفتي، منظر يستحق الرؤية.

- القطة ستحتاج للاهتمام، للاستحمام، للأكل، للشرب..

- أستطيع فعل ذلك

- ومن أين سنحضر قطّة؟

- أنت أقنعي جدّي وجدّتي وأنا سأتدبّر أمر القطّة

ضحكتُ..تعجبني عندما تتحدث بنضج ومسؤولية، تجعلني لا أخاف عليها.

- حبيبتي، غدا صباحا سيأخذني أبي أنا وأمّي للطبيب لمعاينة أمّي، هل تذهبين معنا؟

- هل لديَّ خيار آخر؟

- يمكنك الذهاب للصّالة مع سراج الدّين والبقاء هناك حتّى نعود

- في الصّالة؟ مع كلّ أولئك الشّباب المتعرّقين والرّائحة والضّجيج؟

- صحيح، لكن سراج الدّين غيَّرَ الأمور قليلا، قام ببناء حجرة هناك من الزّجاج العاكس الحاجز للصّوت أين يمكنك البقاء..تستطيعين رؤية الجميع ولا يستطيع أحد رؤيتك.

- هل سيكون سراج الدّين هناك معي؟

- نعم، ليقرأ الكتب إن لم يكن يتمرّن أو يساعد أحد؛ لكنّنا نثق فيه الآن، أليس كذلك؟

- نعم

- إذا ماذا تختارين؟ رائحة العرق أو رائحة مكتب الطبيب؟

- العرق

أجابت دون انتظار. ضحكتُ وقلت:

- نعم، أنا كنت لأفضّل ذلك أيضا، لكنَّ أمّي لن تذهب دون أن نرغمها، لذا عليَّ الذّهاب

- كيف ستذهبون؟

- الحافلة

- لكنّك تكرهين ذلك

- ليس لديَّ خيار آخر

- بل يوجد

- ما هو؟! -سألت بتعجب-

- سيّارة

- لكنّنا لا نملك سيّارة، ولا توجد سيّارات أجرة في قريتنا

- جدّي يعرف من يستطيع أن يعيره سيّارة

- لكن جدّك لا يملك رخصة سياقة

- سراج يملكها

- كيف تعرفين؟

- رأيتها

- إذن أنت تقترحين أن يعمل جدي في الصّالة معك بينما يُوصلني سراج الدّين أنا وأمّي؟

- إذا وافق جدّي على الفكرة فسأذهب أنا أيضا

ابتسمتُ بمكرٍ وسألتها:

- لماذا تريدين الذهاب فجأة معي وأمّي وسراج الدّين؟ هل لأنّه ذاهب؟

- لا..لا..لا؛ إنّه أحمق -أجابت بقوّة بينما ركضت خارجا لتُعْلِم أبي بالخطّة-

أعلمتْ أبي، فوافق؛ أعلم أبي سراج الدّين، فوافق؛ لا أدري إن كانت أفكارها مجرّد أفكار فجائية ذكيّة، أم أنّها خططٌ تدبّرها بإحكام، تبيَّنَ لاحقا أنّها تملك الاثنتين، لقد أعطتني أنا وأمّي وأبي أجمل رحلة..أجمل ليلة..كأنّها الفرار من الواقع نفسه.

الفصل الثامن

تلقّيتُ يومَ عطلةٍ لأُوصل زوجةَ عبد الله وابنته وقدر لأحد الأطبّاء في المدينة؛ كانت رحلة الذّهاب هادئة، فقدر نامت في حضن أمّها وكذلك فعلت زوجة عمّي، في طريق العودة توقَّفتُ أمام محلٍّ للمثلّجات وسألتهنَّ إن كنَّ يحتجن شيئا.

- مثلّجات -أجابت زوجة عمّي-

- نعم، مثلّجات -أجابت ابنته بحياء وصوت جدّ خافت وساحر-

- قطّة.-أجابت قدر-

بعد لحظة صمتٍ عمّت على كلّ من كان في السّيّارة، أكملت جوابها:

- ومثلّجات.

وضعتْ أمّها يدها على فمها لتكتم ضحكتها، أنا من ناحية أخرى، لم أستطع أن أكتم شيئا، بينما قدر لم يطرف لها جفن، كانت جادّة تماما؛ انطلقنا من جديد بعد أن اشترينا كميّة هائلة من المثلّجات.

حزِنتْ قدر لعدم قدرتنا على حفظ المثلّجات جامدةً لتأخذ منها لجدّها. توقَّفتُ بجنب إحدى الطّرقات الفارغة المخضرَّة بالحشيش رغم الصّيف الحار وجلستُ على إحدى الصّخور، وتركتهن في السّيارة لكي يرفعن النّقاب ويستمتِعنَ بالمثلجات براحتهن، لكن قدر أتت بجنبي وأحضرت لي بعض المثلجات في كأسها البنفسجي المفضّل التي تشرب فيه المياه وتأخذه إلى كلّ مكان؛ رفعتْ نقابها على وجهها عندما تأكّدت أنَّ لا أحد بالجوار وبدأت تأكل معي تارة، وتقفز بين الصّخور تارة أخرى، كانت سعيدة، وكنت أنا سعيدا لسعادتها، كانت في حريّة، بكلّ قامتها ونقابها المتدلّي، كانت أجمل كائن صغير، وعيونها الزرقاء مثل عيون أمّها. لا عمّي ولا زوجته ملكا مثل تلك العيون. كانت عائلةً غامضة تخفي الكثير. كانت عائلة غريبة..لكنَّ الغرابة أجمل.

نسيتُ الوقت، نسيتُ العالم، لم أعد أسمع ولا أرى شيئا سواها، تقفزُ أمامي في سعادة، فالسّعادة لا تحتاج مالا ولا لباسا عار. نسيتُ نفسي حتّى تفاجأتُ بأمّها أناييس تسألني بصوت خافت متقطع كأنّها خائفة من سؤالي:

- أخي، هل تمانع إن بقينا هنا لبعض الوقت؟

- طبعا لا أختي

نهضتُ وعدتُ للسيارة مع زوجةِ عمّي نراقبهما من بعيد، الأمّ وابنتها يدًا بيد، تقفزان بين الصّخور ومن يلمس الأرض يخسر، يشمّان الزّهور الصّيفية ويستلقيان على الحشيش الأخضر يُشيران للغيوم ويعطيانهم أشكالا..لا أدري كم عمر أناييس، لكن لابدّ أنَّ قدر تُعيد لها صباها مثلما تُعيد لي براءتي وطفولتي.

- أتمنّى أن لا يزعجك الأمر، فأناييس لا تخرج من المنزل أبدا بسبب رُهابها من النّاس، ومكانٌ فارغ مثل هذا جذبها، فهي لم تكن مع قدر خارجا سوى الجمعة الماضية.

- لا بأس خالتي، لا يزعجني ذلك أبدا؛ هذا يفسّر بياض بشرة قدر

- لا، البياض وراثي من أمّها وليس بسبب قلّة الخروج، لكن لا أدري من أين ورثته مع زُرقة عينيها

- أليس لكم في العائلة أصحاب عيون زرقاء؟

- ليس على حدّ علمي

- وأب قدر؟

- ليس لها أب

قرأتُ من نبرة صوتها الخائف أنَّ الأمر لا حديث فيه. صمتُّ لبُرهة ثم سألتها:

- ماذا قالت لك الطّبيبة؟

- تقول إنّه تعبٌ وضغوط حياة

- إذًا عليك تغيير البيئة والهواء حولك.

- كيف؟

- اذهبي لعائلتك واقضي بضعة أيّام هناك

- لا أستطيع..عائلتي قطعت علاقتها بنا..لا زلنا نحاول وصلهم

راقبتُ أنابيس وقدر لبرهة، ثمّ ضربتني فكرة على رأسي لا أدري من أين أتت

- إذًا قدر تحتاج قطّة؟

ضحكتْ زوجةُ عمّي.

- وأنت بحاجة لتغيير الجو، وعمّي يحتاج الرّاحة، ماذا تحتاج ابنة عمّي؟

فكرتْ قليلا ثمّ أجابت بصوت مفاجئ طفوليٍّ سعيد.

- البحر، إنّها تُريد رؤية البحر، لكنّها لا تُريد أن ترى النّاس هناك..تُريد فقط البحر

فكرتُ قليلا في الفكرة الّتي ضربت رأسي ثمّ سألتُ زوجة عمّي:

- عمّتي، هل تحبّين الأعراس؟

وهكذا تمّ الأمر؛ تركتُ خالتي تُقنع عبد الله بالفكرة؛ كان صعبَ المراس مع هذه الفكرة لأنّها كانت تعني تركَ المنزل وغلقَ الصّالة لمدّة من الوقت؛ الفكرة هيَ أن نذهب لعبد الغني، منزلي القديم؛ نبقى هناك نحضّر لعُرس ابنته ونحضُره ثمّ نعود، لكن كما يبدو، عمّتي لها طرقُها الخاصة لأنّها لم تقنعه بالفكرة فقط، بل جعلته متحمسا لها...النساء!

- ما علاقة هذا بقطّتي؟ -سألتني قدر-

- كان عمّي عبد الغني يُطعم الكثير من القطط في الحي، وهو بلا شكّ لا يزال يطعمها..ستختارين أجمل قطّة تُعجبك ونحضرها معنا

أتتْ بخطواتٍ سريعةٍ قافزة على سريري واستلقت بجنبي، فأحسست ببشرتها الباردة كنسمة هواءِ لامستني

- هل حقّا سنزور البحر؟

- نعم، هل تحبّينه؟

- لا أدري، فأنا لم أره يوما، ولكن أمّي تحبّه وتتحدث عنه كثيرا

- هو جميل، هادئ رغم صوت أمواجه الطبيعية، يجعلك تحسّين أنَّ هناك معنى للحياة، البحر يجعل قلبك يحمل نوعا من الثّقل كأنّه يحاول أن يقول لك شيئا، ذلك الهدوء الطّبيعي المطلق والماء الممتد مع السّماء يجعلك تُحسّين أنَّ هناك شيء أكبر منّا جميعا

- الله؟

- نوعا ما، نعم..أنت ذكية

- لا تطريني، أنت لا تزال تدين لي بالمناسبة

- أعلم..أعلم، أنا لن أهرب..

- أمّي تصف البحر بأنّ ضجيجه ليس كضجيج كلام النّاس الفارغ، صوته يريح، تريد الدّخول فيه ليس للسباحة ولكن لكي تكون وسطه وتغسل نفسها به، كما أنّها تحبّه ليلا

- لماذا ليلا؟

- لكي لا يكون هناك إنسان، ويكون هناك قمرٌ ونجوم وسماء سوداء

- أعجبني ذوقها، ربّما سنزوره ليلا، ما رأيك؟

- وهل كنت أتكلّم معك كلّ هذا الوقت مستلقية بجنبك لأنّني أحبّك؟ طبعا سنزوره ليلا، أمّي تحبّه ليلا وأنا أحبّ أمّي

- ألا تحبّينني؟

- أنت أحمق

لا عذر لي، لقد نالت منّي هناك..أنا أحمق غبي.

* * * * * * *

لم أرد الذّهاب في البداية؛ مقابلةُ أناس جدد لم تكن ميزتي الأفضل، ولكنّهم وعدوني برؤية البحر ليلا..سأرى البحر فارغا من النّاس ومن قذارتهم ومخلّفاتهم..سأرى البحر ممتدا مع النّجوم المنعكسة عليه..سأرى قدرة الخالق في خلقه..أُمضي بقيّة الليلة هناك ثمّ نقودُ صباحا إلى بيته القديم.

الليلة الّتي عُدنا فيها من المدينة، نامت قدر لأوّل مرّة في حضن سراج الدّين دون قرآن، كلّ الليل. نامت على صوته يحدّثُها عن البحر وعن والديه وذكرياته المضحكة معهم وعن جاره عبد الغني وعائلته وذكرياته معه، كنت أستطيع سماع ضحكاتها، بكيتُ بشدّة تلك الليلة، لوحدتي دونها، لعدم معرفتها بحنان الأب وأمانه، لعدم إمكاني الإحساس

بالشّعور الّذي يجمعني وزوجي وابنتي في غرفة واحدة نتبادل فيها الحديث والضّحكات والقصص، نعيد ذكريات الماضي ونرسم ذكرياتٍ جديدة للمستقبل غير البعيد في نفس الوقت، بكيت لنفسي ولها، بكيت لتحمُّسها لأشياءٍ لم أستطع تقديمها لها، بكيتُ لأنّني لم أستطع منحها تلك الضّحكات القويّة الّتي خرجتْ من صميمها كما فعل سراج الدّين؛ لم أستطع منحها تلك السّعادة، وذلك الشعور يذبحني، فسعادةُ من حلالٌ حبُّه هي واجبنا.

اتّفقتُ أنا وأمّي اليوم التالي على أن ندخل للمطبخ سويا ونُعدّ بعض الحلويات بما أنّنا ضُيوفٌ لعائلة عبد الغني، وبعض المأكولات الخفيفة للطريق، ولليلتي السّحرية على شاطئ البحر؛ ظننتُ أنّني بعد كلّ هذا الوقت من الغياب عن ساحة المطبخ، سأشتاق إليه، إنَّ بعض الظنّ إثم حقًّا، لقد كنت مخطئة، بعد اثنتي عشرة ساعة في المطبخ، تأكدتُّ فعلا أنَّ بعض الأشياء أجملُ فقط من بعيد..مهما أخرجتْ من أبهى الأشياء، أو أتتْ مع أجمل الرّوائح، يبقى جمالها من بعيد فقط، عن مسافة، لأنَّ كلّ شيء لديه جانب مظلم في هذه الحياة. في وقتنا، الجانب المظلم أكبر من غيره.

بعد صلاة العشاء، كنت أنا وسراج الدّين وقدر بجانب السّيّارة ننتظر أمّي أن تتأكّد، مجدّدا، من أنَّ كلّ شيء على ما يرام داخل المنزل، الغاز والثلاجة والأنوار، كل شيء مغلق ومحفوظ؛ ننتظر أبي لأنّه أوصل

صاحب السّيّارة وصديقه القديم لمنزله. بينما أنا واقفة بجانب الباب الخلفي وسراج الدّين متّكئ على غطاء السّيّارة في صمت، كانت قدر تحرّك رجليها وتقفز في مكانها.

- هل تريدين الذهاب إلى الحمّام قبل أن ننطلق دون توقف إلى البحر؟ - سألها سراج الدّين-

- كيف عرفت؟! -سألتْه بحيرة-

- عندما يبدأ الإنسان بالرّقص من غير سبب ولا موسيقى، هناك شيء مكبوت.

كان يقصد بالرّقص حركات رجليها وقفزها الخفيف، لكنّ معاني تلك العبارة كانت أعمق بكثير، غاصت عميقا في نفسي وستبقى في عقلي للأبد.

- عزيزتي، اذهبي قبل أن ننطلق

- حاضر أمّي

انطلقتْ داخل المنزل بسرعة وعيْنَا سراج الدّين لم تفارقاها، وبقيتا موجّهتين نحو باب المدخل إلى أن عادت قدر، وما أن برز نقابها الأسود الصّغير حتّى عادت الابتسامة القويّة على وجهه..كان حقًّا يعشقها.

الأمر غريب عندما يتعلّق الأمر بالسّفر؛ بعضُنا يحبّ رؤية أماكن جدد، أناس جدد، صنع ذكريات جديدة، بالنّسبة لي، لم يتعلّق الأمر بذلك أبدا، أنا أحبّ الطّرقات، تلك الطّرق الطّويلة الّتي نَمضي فيها دون توقّف، طويلة لدرجة أنّك بين اللحظة والأخرى تنسى أنَّ لك وجهة، وتشعر أنّك تنتمي للطريق، أنّك مسافر دائم، أنّك مجرّد عابر سبيل، وهذه هي الحقيقة، فنحن كلّنا مجرّد عابري سبيل مثلما قال النبي عليه الصّلاة والسّلام. عن ابن عمر رضي الله عنهما:

"أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي وقال: < كن في الدّنيا كأنّك غريب، أو عابر سبيل > "

إذا كان قلبك معلّقًا بالدّنيا، فستنسى الطّريق، تنسى أنّك مسافر، كلّ تفكيرك يصبُّ في الوجهة فقط، في العيش إلى أن يقطعَ الموت عليك الطّريق دون أن تصل للوجهات الّتي أردتها في الحياة.

خرجنا من القرية، ثمّ من المدينة، واندثرت أنوارها وانبثقت أنوار السّماء. متى رأى فيها أحدكم السّماء آخر مرّة دون سبب..دون طائرة في الأفق..دون شهاب..دون قمر..فقط دون سبب..كانت تلك الليلة كثيرة النّجوم، وما أعجبني هو أنّه مع مساحة الفضاء المظلمة الشّاسعة الّتي تجعل كلّ النّجوم تبدو قليلة العدد، إلّا أنَّ النّجوم برزت على الظّلام الفارغ..ما ذكرّني بالقرآن الّذي ذكر الله سبحانه وتعالى فيه عدّة مرّات

كيف أنَّ قلّةً ممّن يتَّبعون الهُدى، وكثير ممّن يتَّبعون الهَوى الّذين يريدون أن يضلّوا القلّة، ومن يتوكّل على الله ويتَّبع القلّة ويصبر، سينتصر بإذن الله.

لم أستطع أن أزيح نظري عن النّافذة، لا بشر، لا ضجيج، فقط هدوء الطّبيعة ومعجزات الخالق. أحسست بالصِّغر، الصِّغر الشّديد؛ حقًّا، من أنا؟ من بين كلّ المجرّات، هناك مجرّتنا، من بين كلّ الكواكب فيها، هناك كوكبنا، من بين كلّ الطّرقات، هناك طريقنا، من بين كلّ السّيّارات، هناك سيّارتنا، من بين كلّ البشر، هناك أنا..لولا أنّي مسلمةٌ منقّبةٌ حافظة للقرآن، عفيفة وشريفة ومختلفة في زمن كثر فيه التّشابه والإدّعاء بالاختلاف، لأحسستُ بالضّياع، بانعدام الهدف، لأحسستُ أنّي لا شيء.

قدر كانت مثلي في الجهة الشّمال من السّيّارة، ملتصقةً بالنّافذة بوجهها وكلتا يديها؛ أمّي من جهة أخرى، علقتْ في الوسط تستمع لحديث أبي مع سراج الدّين عن المعدّات الرّياضية وحمل الأثقال، أنا من هوّاة المسلمين المؤمنين الأقوياء، فالمؤمن القوي خير من المؤمن الضّعيف، وصحيحٌ أنَّ سراج الدّين قد اكتسب وزنا وعضلاتٍ جعلته غير سراج الدّين النّحيف الّذي دخل بيتنا أوّل مرّة، لكنَّ الحديث عن أيّ نوع من الرّياضة هو مُمل بالنّسبة لي..صِدقًا، لو لم أملك القدرة على

الهجرة بمخيّلتي ونسيان ما يدور حولي، وعَلِقتُ وسط هذا الحوار، لفتحتُ باب السّيّارة وقفزت دون تفكير.

البحر ليلا، أوّل مرّة أرى البحر ليلا، كان الأمر ساحرا، لا ضوء غير ضوء القمر الّذي نثر حبيباته على سطح البحر، لا ضجيج سوى ضجيج أمواج البحر الّتي تطرب الآذان، لا ذنوب من خلقٍ أمام الخالق وعباده، لا أوساخ في مياه البحر، لا نساءِ عاريات هاربات من حرّ فصل الصّيف ناسيات حرّ جهنّم الأبدية، لا شباب يتظاهرون بالقوة ويتباهون بالعضلات وحمل الأثقال وهم لا يستطيعون حمل أعينهم على غضّ البصر، لا زنى وراء الأشجار وبين الصخور، مجرّد أنا وعائلتي وضمير مرتاح تحت أنظار الخالق.

أمّي جلست على الرّمال تسْعدُ كلّما لمست المياه قدميها، وأبي بجنبها يضحك ويسلّيها ويرشُّ وجهها وهي تدفنُ أفخاذه بالرّمال؛ أنا وقدر توغَّلنا أكثر داخل البحر؛ رغم برودته وبرودة الجوّ، إلّا أنّني لن أضيّع هذه الفرصة، وسأستمتع بكلّ قطرة منها وبكلّ لحظة حتّى ننطلق من جديد؛ لم أكن أمًّا في تلك اللحظة، لم أكن مُغتصَبَة، لم أكن خائفة، لم أكن من أنا، كنتُ فقط صبيَّة بريئة تلعب مع صبيَّةً أخرى، نرشُّ بعضنا البعض بالماءِ ونحبس أنفاسنا ثمّ نضحكُ كلتانا لَمَّا يدخلُ الماءُ في أفواهنا ونبتلعه، كنتُ سعيدةً لدرجة أنّني ذرفتُ دموعَ فرحٍ أخذتها أمواج البحر..كنتُ سعيدة برؤية والداي دون هموم مرتاحين..كنتُ سعيدة فوق

ما أستطيع الوصف، كنت أنا وأبي وأمّي وقدر والبحر والرّمال والقمر والنّجوم والله فوق كلّ هذا...وهذا كلّ شيء..كنتُ في جنّة..أحسستُ براحة البال والسّعادة كأنّني في جنّة..فكيف هي الجنّة؟...الحمد لله رب العالمين.

- لا تبتعدا كثيرا، فقدر لا تعرف السّباحة وأنت سيئة فيها.، بكلّ صراحة -قال أبي-

- نحن في نفس الفريق، هل تذكر؟ -قلت له-

- وأنت تعرف السّباحة؟ -سألته أمّي بسخرية-

- أفضل منك.

- هل تريد أن نتأكد من ذلك؟

- هل تحديتني لسباق في السّباحة للتّو؟

- نعم

- هل أنت مجنونة، المياه متجمدة هناك.

- أناييس، كيف حال المياه؟

- رائعة -أجبتها بصوت فرح-

- حقًّا؟! نفس الفريق؟! حقًّا؟!! -قال لي أبي-

- لا أستطيع الكذب، آسفة.

- رائعة..رائعة -أضافت قدر-

- ماذا؟ هل أنت خائف من الخسارة؟ أم أنّك خائف من الغرق لأنّك لا تعرف السّباحة؟

- حسنا، لنقم بهذا

- أناييس، ستكونين أنت وقدر الحكمان -قالت أمّي-

- حسنا-أجبتها-

- ستشهدين خسارة فادحة لأمّك

- كأنّنا لم نسمع هذا قبلا -قالت أمّي-

- لقد نالت منك هناك -قلت له-

- ذكريني بأن نناقش ما معنى كلمة فريق عندما نعود للمنزل إن شاء الله

- اللاعب يأخذ دواءه عندما يَطلب منه ذلك زميله في الفريق

- لكنَّ الدّواء كريه

- فريق، فريـق!

- لقد كان ذلك منذ أشهر عديدة، تجاوزي الأمر

- لقد أفحمتك ابنتك، فلنرى ماذا ستفعل زوجتك، هل أنت مستعد؟

- أنا عالق وسطكن طول عمري، مستعد وأمري لله

الفصل التاسع

تركتهم كعائلة أمام شاطئ البحر واختفيتُ وراء الصّخور أفكّرُ في عائلتي الخاصة؛ تركتهم براحتهم لنزع النّقاب، هنّ بشرٌ أيضا، هنّ أيضا يحببن البحر ويحببن شعور ملامسة الماءِ لبشرتهن، هنّ أيضا لديهن هموم ومشاكلٌ ومآسي وحياة يحاولن نسيانها. فلم يحق للعاصين الاستمتاع بالبحر والبحر ملك لله، على عباده الّذين اختاروا قربه؟!

كنت أفكر بعائلتي تارة، وتارة أستيقظ من تفكيري على صوت قدر وهي تستمتع فابتسم؛ لم أذهب للبحر يوما مع عائلتي، ولو فعلت، لما ذهبت صباحا وذهبت ليلا؛ الأمر ليس سيان، ليس هناك ضجيج أو عائلات أخرى أو أيّ بشر غيرنا؛ كانت اللحظة تقتصر علينا فقط، لا عيون تراقبنا..لا قلق..لا ازدحام، والأفضل من كل هذا، كان هناك شعور لا يوصف، فبين تلامس البحر مع السّماء، والقمر يضيء كليهما، تجدُ نفسك تشعر بالطمأنينة والسّعادة، النشوة والفرح كأنّنا في مكان يتوقف فيه الزّمان وتختفي فيه الأحزان، يأخذها الموج بعيدا، كأنّني قريب من الله..ومن بقربه يحزن؟

أحسست بالسّعادة، بل وأكثر، أحسست بسعادة والداي وابتسمت، حتّى إنّي ذرفت بعض الدموع عندما تذكرت كيف مات كلاهما في وقت واحد..فإن كانت هذه دعوة صغيرة استجابها الله لأمّي، فكيف دعواها بالجنة لكليهما؟ آملا أن كان لي في دعوتها نصيب.

تركتهن كلّ الليل هكذا؛ أتاني عبد الله ليؤنس وحدتي. لم يحيّيني، بل ضحك وقال: "لقد خسرت". لم أفهم قصده ولم أسأل لأنّني كنتُ مشغولا بإخفاء دموعي؛ كنّا نتجول على مقربة منهن لكن دون أن نراهن، وهو يكتفي بأخذ نظرة خاطفة كلّ ما سنحت له الفرصة ليطمئن عليهن؛ لم نتحدث كثيرا، بل كنّا كأنّنا صبية، نختار الأحجار الجميلة ونقارنها ثمّ نرميها في البحر لنرى من منّا يستطيع رميها أبعد، ومع أنَّ الجو بارد لدرجة لا تحتمل، إلّا أنَّ عبد الله عرض عليَّ تعليمي السباحة، وأنا وافقت.

كان الأمر محرجا للغاية وهو لم يتهاون ولو للحظة في الضّحك على أخطائي، لا داعي لقول المزيد، فلنقل أنّني كنت مسرورا لسروره، وسعيدا لتضحيته بوقته مع عائلته في هذه اللحظات النّادرة لأجل البقاء معي.

بعد أن شربتُ الكثير من المياه المالحة، لا أدري غصبا أم طوعا، وبعد أن استمتعنا بشروق الشّمس، أكملنا الطريق؛ نام الجميع في السّيارة واضطررنا لتغطية النوافذ بالملابس لمنع ضوء الشّمس من الدّخول؛ قدر لم تنم بسبب الحماسة الّتي شعرت بها ليلا، فوضعت لها القرآن حتّى نامت. كانت قد انتقلت إلى المقعد الأوسط، واضعةً رأسها على فخذ أمّها ورجليها على فخذ جدّتها..كانت تبدو كحيوان باندا ظريف بنقابه الأسود وكل ما يظهر من بشرتها البيضاء.

أفضل جزءٍ في مفاجأة شخص تحبّه، هو أنّك تستطيع رؤية كم يحبّك من تعبير وجهه؛ أوقفتُ السّيّارة أمام منزلي القديم، ورأيتُ عبد الغني وأبناءَه يمسحون الموائد خارجا، وينظّفون المحلّ استعدادًا لوقت الغداء؛ توقّف عبد الغني عن المسح ورفع رأسه للسّيّارة، ما أن تبيّن له الحرمة فيها حتّى أدار رأسه خجلا واحتراما، ثمّ فعل أبناؤُه المثل، أحببته، أحببتهم في الله، يمكنك أن تحبّ شخصا حبًّا جمًّا لأبسط وأصغر شيء يقوم به كغضّ البصر.

لم يتكلم عبد الله ولا عائلته ولا حتّى قدّر، بل احترموا موقفي في صمت، فهذا كان حيّي، وهذا كان بيتي، وهنا عاش ومات أبي وكذلك أمّي..داخل تلك الجدران كان كلّ شيء على ما يرام، مهما من كان خارجها يحاول إيذائي أو كرهي، داخل تلك الجدران لم يكن سوى الحبّ الّذي يمحو كلّ همّ وحزن وضائق مهما كان نوعه، داخل تلك

الجدران كنّا نضحك وإن اشتدّ بنا البلاء، داخلها كنّا ننعم تحت رحمة الله وأمانه بطاعته، قد يقول الكثيرون أنّ الإسلام وأحكامه وأوامر الله تضعُ المسلم في سجن، لكن لم يقولوا يوما أنّ هذا السّجن هو بيتٌ واسعٌ ملأه الأمان والسّعادة والرّاحة، وما أن تخرجَ منه حتّى تضيع..تختنق..تيأس..تحزن..تمرض..تخاف..تبكي لأسباب لا تعرفها..تصرخ من مشاعر لا تفهمها..تختبئ، من أناس أنت بنفسك السّيئة جذبتها، الإسلام ليس سجنا سوى لمن لا يستطيع السّيطرة على نفسه ورغباته، وبيت أمان لمن رضيَ واستبشر وتيقّن أنّ الحياة لم تبدأ بعد.

تذكّرتُ كيف كنتُ آكل الفاصوليا السّاخنة خارجًا أنا وعبد الغني أمام نار الحطب محتمين من مطر الشّتاء..نستمعُ لزخّاتها مع هدوء العالم، لا شيء سوى نبض الطّبيعة، نستمتعُ برائحة الأرض حتّى تنتهي أمّي من غسل الأطباق وتذهب لغرفتها، فندخل إلى الدّاخل وننام بجنب بعضنا البعض حتّى موعد صلاة الفجر؛ لا أدري كيف تمرّ هذه اللحظات بسرعة دون أن نقدّر أهميتها ولا حجمها، ننشغل بأشياء صغيرة جدًّا تجعلنا نضيِّعُ لحظاتٍ نتمنى الآن لو تعود وتدوم للأبد. لو لم أكن آنذاك منشغلا بالبرد، لاستمتعت أكثر بصوت قطرات المطر السّاقطة في راحةٍ أعلم فيها أنَّ والداي داخل المنزل، لو لم أكن منشغلا بالتّفكير في المستقبل، لرأيت وجه عبد الغني وهو تائه بوجهه التّعب المليء

بالتّجاعيد المخفية وراء لحيته السّوداء، لو لم أكن منشغلا بالتّفكير بالمشاكل، لسمعت صوت الأواني على يد أمّي رحمها الله، أو صوت سعال أبي رحمه الله، قد يبدو صوت الأواني أو السّعال ليسا بالشيء الهام، لكنّني سأفعل أيَّ شيء لأسمعهما من جديد.

تذكّرتُ ما حصل داخل هذه الجدران، كيف كنّا نُسعدُ أنا وأبي أمّي بتدليلها كتعبير شكر لها على كلّ شيء، كيف كنّا نُزعجها قبل أن نُرضيها وكيفَ كنّا نُشعرها بالغيرة..داخل هذه الجدران، كان أبي المريض يبتسم كلّما يراني، وأمّي تحتضني كلّما أدخل المنزل بعيون تُشرق فرحا لرؤيتي..كأنّني لست ابنهم فقط، بل مصدر سعادتهم. الآن، أنا مخلِّصهم إن شاء الله.

قبل أنْ تسقطَ الدّمعة من عينيْ قررت أن أفتح الباب وأخرج؛ ما أنْ أخرجت رأسي من السّيّارة حتّى توقّف عبد الغني عن العمل دون أن يستدير إليَّ، وقال بصوت واضح:

- رائحة سراج الدّين

استدار ولكنّه لم يعرفني؛ ازداد وزني واصطلح جسمي ونمت لحيتي، بقيَ يجول ببصره وراء السّيّارة، ثمّ في باق الاتّجاهات حتّى لاحظني أنظر إليه، فنظر بعمق إليَّ. ابتسمت..

- سر.....س...سراج...سر؟ -حاول نطق اسمي بشفتيه المرتجفتين ماسحا دموعه-

ركض نحوي وعانقني بقوّة وحشرَ وجهه في صدري وانفجر بالبكاء؛ أخيرا، وجدتُ سببا للبكاء؛ انطلق الحفيدُ راكضا داخل المنزل ليخبرَ أمّه وجدّته وكلّ من في المنزل؛ تجمّع أبناءِ عمّي عبد الغني حولي ليتناوبوا عليَّ بالعناق. لم أُحبَّ يوما هذه اللحظات العاطفية الحميمة الغريبة..أفقد فيها توازني، ويحمر وجهي..أفقد السّيطرة على حركاتي وكلماتي، كأنّه قصفٌ عشوائي للمشاعر.

- سررت بحالك، كيف مقابلتك؟ -ألم أخبركم؟ شلل عاطفي-

تراجعَ عبد الغني بضعَ خطواتٍ للخلف ليتأمّل حالي، بينما أبناؤه يرحّبون بي؛ أمّا الجيران فلم يتغيّر حالهم، من كلّ نافذة وباب، يمكنك أن تسمع همساتهم

- هذا سراج الدين

- هذا سراج الدين؟

- لا، ليس هو

- هذا هو

- مستحيلٌ أن يكون هو

- لقد تغير، إنّه وسيم

- يبدو غنيّا، ولديه سيّارته الخاصّة

- سيّارة قديمة لا تساوي شيئا

- لقد أصبح متديّنا سلفيّا

- رقم السّيّارة من جهة الشّمال

- لا، الشّرق

- السّيّارة عتيقة وليست قديمة

- هناك أناس فيها

- هناك طفلة صغيرة

- لقد تزوّج

- تزوّج ولم يدعُ عبد الغني

- تزوّج ولديه طفلة

!....هيّا يا ناس، أنا لم أغب لسبع سنوات، أنا لم أغب حتّى لتسعة أشهر.

*   *   *   *   *   *   *

لا تعرفُ إنسانا حقًّا حتّى تعرفُ كيف يتعامل معه من يعرفونه، وممّا رأيته، عرفتُ حبًّا وودًّا لا تكفيه الكلمات وصفا، رأيتُ احتراما لم يعد يوجد في زماننا، رأيتُ تقديرا لم أره إلّا في الكتب والرّوايات، رأيتُ حبًّا يكفي أن يقفوا في وجه الرّصاص لأجله؛ كنتُ في السّيّارة مع أبي وأمّي وقدر تحتضنُني كأنّها خائفة، كيف لها أن لا تكون وكلّ هؤلاء النّاس ستضطر للقاء بهم لاحقا، أنا خائفة بدوري من النّساء داخلا، من العُرس، من كلّ ما يحصل حولي، كنت أراقب سراج الدّين وأبتسمُ دون قصد لتصرفاته الغريبة أمامهم، أنا جدّ متأكدة منْ أنّه قد قتل قواعد اللّغة العربيّة بكلامه، في مرحلة ما سمعتهُ يقول "سررت بحالك كيف مقابلتك" لا شكّ أنّه متوتر، لكنّه بالتّأكيد ليس نفس الإنسان الّذي رأيته أوّل مرّة؛ كان يبدو أعرضَ وأقوى..أكثر إنارة بقميصه الأبيض ولحيته السّوداء تبرزُ منها بعض الشعيرات البنيّة.

أطلّت النّساء من داخل منزل عبد الغني خلسة ليرَوه. لا أدري ما أخّرهن، فكلّ الجيران أطلّوا بالفعل من كلّ فتحة؛ الآن حقًّا فهمت معنى

الرّسالة الّتي وصلت سراج الدّين، كلّها، لم يقطع صمتنا سوى كلمات تمتم بها أبي:

- ما شاء الله، ما شاء الله

همسَ سراج الدّين بضعَ كلمات في أذن عبد الغني، ثمّ أشار لأبي بالنّزول، وأشار عبد الغني للنساء من داخل المنزل نحونا؛ سلّم أبي على الرجل وأبنائه ودخلوا المحلّ جميعا، وضِمنهم سراج الدّين؛ أتانا بعد لحظات منْ عرفته منَ الرّسالة على أنّه حفيد الرّجل يدعونا للخروج منَ السيارة والدّخول للمنزل؛ خرجت أمّي أولا، حاولت الخروج واستدرت لقدر فوجدتها تمسك ذراعي بشدّة وعيونها حمراء تبكي بصمت.

- ما بك عزيزتي؟

لم أسمع منها ردًّا، سوى نظرات عيونها بينما تحاول أن تجمع أنفاسها؛ أشرت لأمّي أن تدخل وتأخذ الصبي معها ثمّ أغلقتُ باب السّيّارة والنّوافذ لوقفِ الضّجيج. احتضنتها حتّى هدأت ثمّ قبَّلتُ عينيها وسألتها:

- ما الخطب قدر؟ أخبريني

- لا أريد البقاء هنا، لنذهب

- لكنّنا وصلنا للتو

- لا أهتم، نادي جدّي وجدّتي وسراج الدّين ولنعد للمنزل

- قدر..؟

- أريد العودة للمنزل

لم أرها يوما تقوم بمثلَ هذه التّصرفات؛ لم تطلب في حياتها ولو علبة شوكولاتة، فما هذا الّذي تفعله؟! تطلب منّا المغادرة تاركين النّاس في حيرة..

-- قدر حبيبتي، هم أناس طيبون ولن يؤذوك. هل رأيت كيف رحّبوا بسراج الدّين وتجمّعوا حوله؟

ما أنْ ذكرتُ الجملة الأخيرة حتّى بدأت عيناها بالاحمرار مجدّدا ثمّ انفجرت باكية واحتضنتني.

- سيأخذونه منّا..لن يعود معنا..سيأخذونه ولن يعود..لن نراه مجدّدا..لن يعود..سيأخذونه

سقطت تلك الكلمات عليّ كالصّاعقة، جعلتني أبكي بدوري لا أدري فرحا أم حزنا..كم تعلَّقتْ به..كم تعلقنا جميعا به.

- ولكنّه لن يبقى هنا يا قدر عزيزتي، لن يبقى

- لا، سيبقى ولن يعود، سيتركنا...سيتركني، هم يحبّونه أكثر منّا..لن يتركوه يعود معنا

فكَّرتُ قليلا؛ مسحتُ دموعي ثمّ نزعتها من حضني بلطف؛ خرجتُ من السّيّارة وذهبتُ ووقفتُ أمام باب المحل حتّى لاحظني أبي فجاء إلي.

- قدر تبكي وتريد سراج الدّين

- لماذا؟ ماذا حصل؟ ما الخطب؟

ضحكتُ ضحكةً خفيفةً وقبَّلتُ أبي على جبينه.

- إنّها تحبُّه وخائفةٌ من أنّه سيبقى هنا ولن يعود

- لكنّه سيبقى هنا حقا ولن يعود

- ماذا؟ -خبر آخر نزل عليّ كالصّاعقة-

- أنا أمزح فقط، دعيني أناديه

- هذا ليس مضحكا!

- مضحك بالنّسبة لي -تقدَّم نحو سراج الدّين يضحك وهمس في أذنه ثمّ أشار إليّ، فأتى-

- ماذا هناك أختي؟

- قدر تبكي وأريدكَ أن تهدّئها

- ماذا بها؟ أين هي؟ -سألني بخوف-

- في السّيّارة..هي خائفة

- من ماذا أختي؟

- عندما رأت كم يحبّك هؤلاء القوم، خافت من أنّك ستبقى معهم ولن تعود معنا وتفارقنا..تفارقها للأبد

برقتْ عيناهُ سعادةً وسارع نحو السّيّارة وتقدّم إليها؛ فتحَ الباب الخلفي وبمجرّدِ ما سمعت اسمها على شفتيهِ حتّى انقضَّت عليه تحتضنهُ وتبكي بشدّة، تعانقه بقوّة كأنّه يحاول الفرار، كانت أجمل ما يكون وهي بين ذراعيه، لم أجد سوى الدّموع. رأيتهُ وهو يحملها ويمشي بها في الشّارع بعيدا. تراءتْ أمام عينيّ أمنيةٌ تمنيتها قبل أن يحصل معي كلّ هذا، قبل قدر، أمنيتي أن أرى زوجي يحملُ ابننا ويتّجه به نحو المسجد

للصّلاة وأنا أراقبهما من النّافذة...قطع أبي عليَّ أحلام يقظتي بيده على كتفي. قرَّبني إليه ليمسح دموعي ثمّ قبَّلني على كليهما وقال:

- لا تقلقي، لن يغادر أبدا. كان يعشقها قبلا، فما بالك الآن وهي اعترفت بحبّها له

ثم نظر في عينيّ وأضاف:

- أعلم ذلك لأنّك كنتِ تبكين وتُعانقيني بتلك الطريقة كلّما حاولت الذّهاب للعمل، وكنت متشوقا للعودة إلى المنزل بعد العمل لكي تُعانقيني من جديد، كنت متشوقا لدرجة أنَّ عناقك كان كلّ ما كنت أفكر فيه في العمل

- رآني أبكي من جديد -

- ابنتي، كلّ شيء بقدر، كلّ شيء قدّره الله، فهل تظنين أنَّ الله، بكلّ رحمته وحبّه، أرسله إلينا ليأخذه منّا الآن؟ابنتي، مهما حصل، سواءً في الماضي أو الآن أو في المستقبل، فاعلمي أنّني فخورٌ بك وراضٍ عنك وعليك وواثقا كلّ الثقة فيك، ولا أستطيع الانتظار لكي أقف أمام الله ويسألني عنك، ويحاسبني بك، لأنّني أفخر رجل في الدّنيا بك وبأخلاقك وصبرك، أنا واثقٌ تمام الثّقة كما أنا واثق من حسن ظنّي بالله، أنَّ كلّ

شيء سيكون على ما يرام؛ سواءً هنا أو في الآخرة، أدخلي ابنتي وابتسمي واسعدي، فالحزن لا يليق بعينيك

احتضنتُ أبي ودخلت المنزل، وما إن فعلتُ حتّى هجمن عليَّ بالقبلات والعناق والأسئلة؛ آآآه، الآن فهمت لماذا تصرّف سراج الدّين بتلك الغرابة عندما هجم عليه أبناءِ عبد الغني..لا عجب..

الفصل العاشر

- ظننتُ أنّني مجرّد أحمق، فلماذا لا تُريدينني أن أبقى هنا؟

- هذا لأنّك أحمقنا...-أجابتني بصوتٍ منكسرٍ ووجهها محشور في صدري-

- لماذا تظنين أنّني سأغادر؟

- لأنَّ الجميع يهرب منّي ويكرهني

- هذا ليس صحيحا

- بلى صحيح، الكلّ يرحل عنّي، جدّة أمي وجدها، خالاتي وأخوالي، أعمامي وعمّاتي..كلهم يكرهونني

- ما الّذي يجعلك تقولين هذا يا قدر؟

- أراهم..أتذكّرهم وأراهم في أحلامي

- ماذا ترين؟ ماذا تتذكرين؟

- أتذكر أقوالهم ونظراتهم و...

- اهدئي قدر، اهدئي أنا معك، أخبريني ماذا ترين في أحلامك، ماذا تتذكرين؟

- عندما كان يأخذني جدّي للصالة معه وأنا صغيرة، أحلم بهم، أتذكرهم، ينظرون إليَّ نظرة اشمئزاز وكره، كلهم، في المدرسة يضربُونني ويُطلقون عليَّ أسماء، حتّى الأساتذة لا يحبّونني ويصرخون في وجهي، أذكر أب جدّي يصرخُ في منزلنا ويقول أنّه لن يضع خطوة على عتبة المنزل مجدّدا ما دمت أنا فيه، أذكرهم جميعا، الجميع يرحل عنّي ويكرهني، وأنت أيضا ستكرهني وترحل ولن تعود

لا أنكر أنّني بكيت؛ ليس عيبا للرجل أن يبكي للسبب الصّحيح؛ كلّ هذه البراءة تُخفي كلّ هذه النُدوب، تصبر عليها ولا تبوح بها، كلّ هذه البراءة نَجتْ وسط كلّ الأوضاع الموحشة الّتي مرَّت بها، كلّ هذا الألم؛ مسحتُ عينيها اللّتين تحاولين تفادي نظراتي، ثمّ احتضنتني من جديد وبقوّة. قميصي أصبح مبلّلا. لم أكن أدري ما سأفعله أو أقوله..كيف تداوي ندُوب حياة، لمن بدأت حياته للتّو؟

- قدر..؟

ردَّت سوى بشهقات دموعها

- قدر عزيزتي...

أعدتُ قول اسمها وأنا أربّت على ظهرها.

- ماذا؟

- أنا لن أغادر

- بلى ستفعل

- لا، لن أفعل

- أتعدني؟

- أعدكِ أنّني لن أغادر إلّا لسببين

- ما هما؟

- حين أموت، أو حين تطلبين منّي أنت المغادرة

- لا..لا..لا..لن أطلب منك المغادرة، وسأسأل الله أن يجعلك تعيش للأبد، للأبـد.

ابتَسَمَتْ، لكنّها سرعان ما أخفتْ وجهها في صدري وعادت للبكاء

- أنت فقط تقول هذا لتُسكتني ثمّ ستغادرني، لقد وعدتني أن نحفظ القرآن معا عندما نعود وأنت لن تعود معنا

- أنا أيضا أدين لك بخدمة، أتذكرين؟ لن أغادر دون أن أقضي ديني لك

- لن أطلب منك خدمة أبدا

- كما أنّني إذا غادرت، من سيربّي القطّة معك؟

- قطة؟! -رفعت رأسها من صدري-

- نعم قطّة، أنتِ لا تعرفين تربيةَ القطط لكنّني أعرف..هل نذهب لرؤيتها الآن؟

- أومأت برأسها -

- ألن ترحل عنّي أبدا؟

- لا دنيا ولا آخرة بإذن الله

أرختْ رأسها على كتفي بصمت وأغمضت عينيها، مسحتُ دموعها وقبَّلت ذراعها، قلتُ هذا مرّات عدّة ولكنّها ليست كافية ولن تكون كافية أبدا...أحبّها

عدتُ للمحل وهي تعانقني، وما إن فتحتْ عينيها ورأت جدّها وعبد الغني حتّى أخفتْ رأسها في صدري مجدّدا، كان شعورا جميلا أن يثق

فيك أحدٌ كلّ هذه الثّقة من بين الجميع..خاصّة شخص بهذه البراءة والسّن.

- عمي عبد الغني..

- نعم ابني، من هذه؟

- هذه حفيدتي."أجابه عبد الله"

- ما شاء الله، لكن ما بها؟

- هي لا تحب الغرباء، كمّا أنّها خائفة من أنّكم ستبقون سراج الدّين هنا ولن يعود معها

- إذن سراج الدّين ليس غريبا؟

- أتمزح؟ إنّها تحبّه أكثر منّا. منذ أن أتى هو، نسيَتنا نحن

- هذه شيمه..أينما يذهب يحطُّ في قلوب النّاس

- عمي عبد الغني، هل لا زلت تطعم القطط المشرّدة؟

- إلى يوم وفاتي

- أين هي الآن؟

- هي في مكانك المفضل

- صغيرة الباندا هذه تريد قطّة، هل تمانع؟

- لا..لا..اذهب، يسرُّني أن تجد إحداها منزلا، وأنا متأكد أنَّ هذه الصّغيرة ستعتني بها كما اعتنَتْ بك

- سأفعل - قالت بصوت جدّ خافت بين ثنايا صدري جعلتنا نضحك جميعا سرورا بها-

- لا تقلقي صغيرتي، لن نبقيه هنا حتّى وإن أردنا ذلك

وأنا متّجه نحو الدّرج سمعت:

- مكانه المفضّل؟

- نعم، السّطح..كان لا يفارقه عندما يفارقُ النّوم أجفانه

- ماذا يفعل هناك؟

- لا شيء، يراقب السّماء..يجلس هناك دون حراك

- إذن فهو غريب الطّباع حتّى قبل أن يصل إلينا.-ضحك عبد الله-

- غريب منذ الولادة-ضحك معه عبد الغني ثمّ سأل:-

- أين هو أبوها؟ لم لمْ يأتِ؟ المكان يسع الجميع

- ليس لها أب

- كيف؟

أكملتُ صعودي آملا خيرا؛ ما إن وصلت للسّطح وارتفعت أصواتُ القطط حتّى قفزت قدر من حضني وذهبت تركض وراءهم وتقلّد أصواتهم وتلعب معهم؛ مجرّد كتلةٍ سوداء صغيرة ظريفة ذات يدان بيضاوين وعينان زرقاوين تركض هنا وهناك. جلستُ في مكاني المفضّل أراقبها وابتسم رغما عنّي وأتساءل..

- كيف لمثل هذه البراءة أن تنجو كلّ هذا الوقت؟

- كيف لمثل هذه الطفلة أن تكون دون أب؟

- هل مات؟ كنت لأعلم؛ هل طلّق أمّها وغادر؟ هو مجنون

- لماذا سموها قدر..؟

- أمّها أناييس لها اسم جميل. قرأتُ أنّه اسمٌ عبري بثلاثة معاني. لا أدري أيّها الصحيح أو إن كانوا كلّهم صواب، لكن في كلّ المعاني الثلاثة كانت أمّ قدر هي المقصودة؛ المعنى الأول هو "زهرة بيضاء جميلة" مثل قدر وأمّها؛ المعنى الثاني هو "متمردة" مثلما تمرّدت أمّها على كلّ العالم

الذّي سعى وراء التعرّي والاختلاط والفساد وأسموه التّطور وتفتح عقل؛ المعنى الثالث هو "أرنبة ذكية وسط أرانب غبية" وهي التّي اختارت النّقاب والتقرب من الله لأنّها تعلم أن الحياة مجرّد لحظات وتنتهي، لأنّها تعلم بعلامات السّاعة، وتعلم أنَّه إنْ لم يكن الموت قريبا، فالسّاعة أقرب، والعكس صحيح.

بصراحة، لنواجه الواقع، نحن في آخر الزّمان، في عالم مليء بالأغبياء؛ أيّ شيء، أيّ قول، أيّ فعل، أيّ خطاب، أيّ لباس، يستطيع تحريفهم عن أصلهم وأهدافهم تحت راية "الحياة" و "الحبّ" و "التّطور" و "التّشبّه" و "الرّغبة" و "الشّهوة" و "التّحرر"...لَيْتهُم يعلمون منْ وراء هذه الرّايات، وسوساتُ نفس أمّارة بالسوء و شياطين وخطط ماسونيّة يعملون...

- قبِّلها..قبِّلها..-فاجأتني قدر بهرّة صغيرة زرقاءِ العيون مثلها ذات فراء أسود وأبيض، جميلة-

- لن أقبّلها

- هيّا..قبّلها..إنّها تحبّك، أنظر إليها

-قبّلتها-

- هل تعجبك؟

- أنا أحبّها، هذه الّتي تريدين أخذها معك للمنزل؟

- معنا، معنا، قل معنا

- معنا، هذه الّتي تريدين أن نأخذها معنا للمنزل؟

- نعم، هذه؛ إنّها وحيدة بلا أب ولا أمّ

- كيف عرفت؟

- لا توجد قطّة أخرى تشبهها

- وإن كانت هناك؟

- سنأخذها أيضا، احملها..هيّا

- آه..

- هيّا، هي لن تعضّك، إنّها لطيفة جدًّا

- لقد قبَّلتها

- هي تحبّك، ألا تحبّها؟

- أحبّها

- إذًا لمَ لا تحملها؟

- لأنّك تبدين جميلة وأنت تحملينها

- التّملق لن يأخذك إلى أيّ مكان، ستحملها يعني ستحملها

- ماذا ستُسمّينها؟

- خَلْق

- خلق؟ هذا اسم غريب، كيف فكّرت به؟

- احملها وربّت عليها وسأخبرك

- حملتها وربَّتُ عليها -

- خلق لأنّها خلق الله، وأنا لست أمّها ولا أباها لأسمّيها، فأيّ حقٍّ لديَّ لآخذ حقّهما في تسميتها؟

- لقد أقنعتني، نوعا ما -

* * * * * * *

لم أرَ أمّي سعيدة هكذا منذ وقت طويل، مضى وقت طويل منذ أن رأيتها مع نسوة غيري تستمتع بوقتها. هي متعوّدة على الحديث. لديها

خبرة في ذلك من أيّام زهور حياتها. رأيتها تتكلم مع زوجة عبد الغني عن وصفات الحلويات، عن القماش، عن هندسة البيت، عن سراج الدّين، أما من جهة أخرى، فأنا لم أبلي بلاء حسنًا على الإطلاق

- أنت جميلة

- شكرا

- أعجبني نقابك

- شكرا

- كم عمرك؟

- شكرا، أقصد نعم هي أمّي، أقصد..آسفة، ماذا كان سؤالك؟

- نعم، لقد أتقنتُ الأمر -

عبد الغني أخبرهم قصّة سراج الدّين منذ أن انتقل إلى هذا الحي؛ لا أحد يعرف قصته قبل هذا الحي..لماذا انتقل أو من أين أتى؟ لكن على الأقل عرفت قصّته مع هذا الحي.

هذا الحي متخلّف علميا وتربويا؛ عندما انتقل سراج الدّين إليه أحسَّ الجميع بالخطر ونوع من الغيرة منه؛ منهم من حاول ضربه،

تهديده، طرده، تلفيق التهم له، ومنهم من حاول حتّى قتله؛ كان من النوع الّذي يقرأ الكتب فوق السّطوح بدّل التّجمع مع أولاد الحي ومراقبة الصّاعد والنّازل، ذكرًا كان أم أنثى؛ هذا جذب إليه إعجاب فتيات الحي وكره الشّباب له، فنشروا عنه أسوأ الإشاعات الّتي تقزز السامع.

حاول فتح محلّ موادٍ غذائية ليعمل ويدرس فيه في نفس الوقت، لكنّ جاره وابنه الشّاب الّذي ترك مقاعد الدّراسة، بعد أن علما بخطّته، فتحا محلّا للمواد الغذائية قبله بيوم؛ فتح سراج الدّين مكتبة بعد ذلك، وبما أنّ الحيّ لا خبرة له في الثّقافة ولا التّعليم، لم تُحقق له أرباحا. ركّز في المكتبة على بيع الحلويات لأطفال المدارس، فنَفسُ جاره الحسود أراد أولئك الزّبائن الصّغار لنفسه، فنشر إشاعات بين آبائهم مفادها أن سراج الدّين منحرف، بائع مخدرات، مروجٌ لأفلام الإباحة، حتّى لم يعد يبيع شيئا، فأغلقها؛ مهما بلغ بهم الكره والحقد، فسراج الدّين لم يكن يبلغ سوى التّخلق والعلم.

بما أنّه وسيم، أو بالأحرى جميل بأخلاقه، حاولتْ إحدى فتيات الحي ترويج فكرة أنّه حبيبها فقط لتبعد عنه نظرات فتاة أخرى من الحي متذرّعة بالغيرة، ولكن ما إنْ انتشر الحديث حتّى زاد حقد الناس عليه، وزاد هو في رقّه وابتسامته وصبره وإعانتهم وقت الحاجة، حتّى أنّه درّس أولادهم.

أخذَ شهادة الباكالوريا رغم أنوفهم الحاقدة ومحاولاتهم البائسة في خلق الضّجيج حوله لمنعه من الدراسة، ثمّ بدأ البعض بالتّعرف عليه قليلا حتّى اكتشفوا أنَّ معظم ما يقال عنه كذب، فأصبح بعض كبارِ الحيّ يحيّونه ويحترمونه، ثمّ هناك زوجها، عبد الغني، سكيرٌ مقامرٌ متشرّد، لم يكن أحد يحيّيه سوى سراج الدّين، لم يبتسم له أحد حتّى، كانت تحيّة سراج الدّين وابتسامته تعيدُ له ضحكة الأمل بإنسانيته؛ عندما كان يسقطُ سكرانا في وسط الطّريق ليلا، يجدُ نفسه نهارا على الرّصيف فوق فراشٍ وتحت غطاء دافئ، في الشّتاء، يسقط مبلّلا ويستيقظ مجفّفا داخل منزله، دون خوف من سكره ولا هويته.

علمَ سراج الدّين أنَّ الجميع كانوا ينصحُون عبد الغني، لكنْ بطريقةٍ جعلت عبد الغني يكره النّصيحة وينبذها، ينصحونه بطريقة صارخة وفاضحة ومُذلّة بالشّتم والسّباب، استسلم الجميع بينما استغل سراج الدّين الصّمت والابتسامة والخير ليدخل قلب عبد الغني ويُداوي ندوب نصائحهم من قلبه قبل أن يبدأ بنصحه بالطّريقة الصّحيحة، خجل عبد الغني من نفسه ومن دخول منزل سراج الدّين المشبّع بالقرآن والصّلاة وهو في حالة سكر، لذا توقف، وإذا غلبته نفسه وشياطينه وشرب الخمر من جديد، كان لا يعود للحيّ خجلا حتّى وإن لم يُشعره سراج الدّين ولا أبوه ولا أمّه بالخجل، لكنَّ سراج الدّين كان يبحث عنه عندما لا يجده في مكانه، فكان أحيانا يجده وأحيانا أخرى لا..فقد كان الجميع

يخطئ، كلّنا نخطئ، لا نريد من يُعيبنا بأخطائنا بل نريد من يُساعدنا على تصحيحها وتخطِّيها، نريد من يساعدنا بالفوز على شياطيننا وأنفسنا الأمّارة بالسّوء، نريد من لا يُريد لنا سوءًا حتّى وإنْ أردناه لأنفسنا، وسراج الدّين وجد طريقة لفعل ذلك؛ لم يحدّثه عن الشّراب ومضاره وذنوبه فقط، بل جعل عبد الغني يحدّثه عن أسباب إدمانه، جعله يعرفُ أنَّ هناك قلبا سيؤنّسه في لياليه وأيّامه بدل الشّراب؛ شيئا فشيئا أحبّه حبّا جمّا وأصبح يذهب معه للصّلاة ويصوم معه، وهكذا حتّى أصبح الرّجل الّذي رأيتهُ يقبِّل ويعانق سراج الدّين.

عندما دخل سراج الدّين عتبة منزلنا لأول مرّة، لم يَبدُ لأيّ أحد منّا أنّه من النّوع القوي، لكنّه أثبت لي اليوم أنّه مهما كان الإنسان نحيفا أو خشنا، مُتدرب فنون قتال أو لا، ذلك ليس معيار القوة؛ أثبت لي أنّه قوي، لأنّه مع كلّ هذا الّذي حصل معه في حيٍّ واحدٍ كلّ يوم لمدّة سبع سنوات كاملة، دون ماضيه المجهول، لم يتغيّر إيمانه ولا أخلاقه، أكّد لي أنّ الأخلاق رزقٌ من الله أيضا.

كنتُ متأكدةً أنَّ قدر لن تأتي وستبقى معه، لأنَّ هناك الكثير منَ النّسوة هنا، وأيضا هذا الولد اللطيف؛ كنتُ أعلم أنّها خائفةٌ من النّاس، ولا تنعم بالأمان إلّا في المنزل، ولكنّها مع سراج الدّين، إنّها بخير، كنت متيقنة؛ في لحظةٍ ما، كنت أنعم بنوع من راحة بال خالية من الخوف، كنت أحس أنّني طبيعية. ابنتي في أمان. أبي أصبح له صديق في مثل

عمره. الفتيات هنا يُحسنَّ معاملتي ويشاركنني كلّ شيء حتى لباسهن؛ أمّي سعيدة بصديقة جديدة، مثل هذه اللحظات لن تدوم للأبد؛ علينا أنْ نأخذَ منها ما نستطيع ونعطيها حقّها، لأنَّ مثل هذه اللحظات، هي ما نتمنّى أنْ تعود بعد أن يرحل أصحابها، فقط لنعيشها مكرّرة إلى الأبد.

منذ مدّة طويلة لم أحظ بـ "حديث فتيات".

- لماذا ترتدين النّقاب وأنت آية في الجمال؟ -سألنني كأنّ النّقاب كُتب على البشاعة. ابتسمت وأجبت:-

- أمر الله، وأمر الله لا نقاش فيه

- لا أظنّني أستطيع. .أخاف من العنوسة

- الزّواج رزق من الله. إن قدّر الله لك الزواج لفعلت ولو كنت في مجتمع أعمى، وإن لم يقدّر لك الزّواج لما فعلتِ ولو رأوك كما يرون القمر جمالا ووضوحا.

- معظم الشّباب لن يتزوجوا منقّبة

- لكن القلّة الطّيبين سيفعلون

- من أين يمكنني الحصول على واحد؟

- لقد أخطتُ هذا بنفسي، يمكنك أن تشتري واحدا من محلّاته الخاصّة

- هل هو غال؟

- لا يلبسه المقدّرين بثمن، يُمكنني أنْ أخيط لك واحد وأرسله إليك بعد أن أنتهي منه

- وأنا؟

- أنتِ أيضا، من دواعي سروري

- لم لا تجعلين ذلك مهنة؟

- لأنّني لا أعرف فتياتٍ يُردن ارتداء نقاب

- لكنّنا نعرف البعض منهن، كما أنّه يشكّلُ هديّة رائعة

- إذن ماذا تقترحن؟

- نحن نتدبر لك الزبائن والعناوين وأنت تخيطينها وتُسلّمينها لهم

- لم أفكّر في جعلها مهنة قبلا

- هل تملكين عملا آخر؟

- لا

- إذن لم لا؟

أعجبني الأمر هناك..كنت أحس بالأمان كما كنتُ في بيتي. إنّهم يهتمون بالصّلاة وقراءة القرآن، أملي أن تكون قدر بنفس اطمئناني، آمل أنّها كذلك..يا رب، نحن نحتاج هذه العائلة.

الفصل الحادي عشر

لا أدري كيف وضعتُ فكرةَ قُدرتي على النّوم في المكان نفسهِ الّذي لم أستطع أنْ أنام فيه قبل أشهر عدّة. يبدو أنّني لم أتخطّ فكرة أنَّ والداي كانا ينبُضان بالحياة هنا..في هذه البقعة بالذّات؛ الآن، أنا عالق في غرفةٍ مليئةٍ بالرّجال، وخلفَها نسوةٌ يبدو كأنّهن غير قادرات على القيام بثلاثة أشياء: النّوم، الحراك، الصمت؛ ما الّذي يتحدّثون عنه كلّ هذا الوقت بحق الله؟! لا أستطيع الذّهاب إلى السّطح بينما هنّ هناك، ولا أستطيع الخروج أيضا؛ كلّ ما أنا قادرٌ على فعله هو البقاء هنا والاستلقاء في الظّلام؛ قد يبدو هذا من شيمي، لكن ليس وأنا محاط بأناس..أحتاج العزلة.

- بني، لا تستطيع النوم؟"سألني عبد الغني"

- لا، ليس فعلا

- ولا أنا، ما هي أسبابك؟

- نفس الأسباب الّتي تَركتُها تنتظر هنا؛ وأنت؟

- أنا فقط متحمِّس لعودتك

- حقا؟ ليس بسبب ثرثرة النّساء؟

- بني، أنا متزوّج منذ مدّة طويلة، تلك الثّرثرة أصبحت جزءا منّي ولا أستطيع النّوم دونها

- هل سيحصل لي هذا عندما أتزّوج وأحظى بعائلتي الخاصّة إن شاء الله؟

- هذا أقلُّ ما سيحصل

- هناك المزيد؟

- صدّقني، مقارنة بما سيكون أمامك في الزّواج، الثّرثرة هي علامةٌ على أنَّ كلّ شيء على ما يرام، الصّمتُ هو ما عليك أن تقلق بشأنه.

- حمدا لله أنّي لن أتزوج قريبا إذن

- لكنك ستكون رائعا مع الأولاد، تلك الفتاة الصّغيرة متعلّقة بك، مَجازيا وممّا رأيت صباحا، حرفيًّا كذلك

- وأنا متعلّق بها أكثر من ذلك، مَجازيا فقط، لا أظنّ أنّه ممكنٌ فيزيائيا أنْ أتعلّق بها حرفيا

- لو كان ممكنا لفعلت

- دون تردد

- أتعلم أنّها لم ترد النّوم دونك؟

- حقا؟؟

- نعم؛ زوجتي أخبرتني

- هل وضعوا لها القرآن؟

- نعم، لا تقلق يا زعيم، فأمّها معها..هل نسيت؟

- لا..لا..أعلم، إلّا أنّها تعني الكثير لي، إنّها مميّزة جدًّا

- كلّهم كذلك، حتّى أنت؛ الله كان يرعاك ويُرشدك منذ البداية؛ أنت لن تعيش معي أبدًا إذًا؟

- ليس دونها

- هل تحبّها لهذه الدّرجة؟

- بل وأكثر، كما أنّك لم تر الخدع الّتي تمارسها على الدمى، صدّقني، لا أريد أن أكون إحداها

- هل تظنّ أنّها ستحبّني أنا هكذا يوما ما؟

- لا آمل ذلك، على الأقل ليس بنفس الدّرجة

- أناني

- لقد عملتُ بجدّ...بجدّ حقًّا، لكي أكسب حبّها

- وسأفعل المثل

- حظًّا سعيدا في ذلك، ستحتاجه

ذاك الوقت أعاد إليَّ أحاسيس قديمة، تلك اللّيالي بيني وبينه؛ كان إحساسا جميلا تمنيتُ لو أحظى به في حياتي اليومية، وأحظى فيها بقدر أيضا؛ لكنّني بالغٌ كفاية لكي أعرف أنَّ المرء لا يمكنه الحصول على كلّ شيء؛ عندما ساد الهدوء في ذلك المنزل، عادت إليَّ ذكريات أكثر ممّا كنت أبتغي، وعادت إليَّ أحلامٌ وأمنياتٌ تمنّيتُ لو حصلتْ تحت ذلك السقف، أحلامٌ وأمنياتٌ حتّى وإن تحقّقت الآن، فلن تكون سيان للخيال أبدا لأنّني فقدت من كان الحلمُ معهم أجمل.

صعدتُ للسّطح بعد أن هدأت الأمور بين النّساء نهائيا، وجلستُ هناك أتأمّل النّجوم، القمر، وسواد الفضاء بينهم؛ لا أعلم لماذا كنتُ أفعل هذا أو كيف بدأتُ فعله، لكنّني أشعر بالرّاحة لفعله..بنقاء أفكاري وصفاء عقلي..ضربات قلبي تخفُّ وروحي تهدأ..في الماضي كانت أمّي أحيانا تفاجئني بزيارةٍ على السّطح لتجلس معي، إمّا في هدوء، وإمّا في ضحك متتابع من أحداثٍ طريفةٍ حصلت في الواقع لنا أو لغيرنا؛ أبي كان

ينضمُ إليّ لكن قليلا ما كنّا نضحك من غير أمّي، كانت هي حقّا نعمةً من الله لأجل إسعادنا؛ كنّا نتكلّمُ عن الدّيون، والمخططات المستقبلية والعمل والفواتير المتراكمة، ثمّ حين نحسّ بضيق أنفسنا، نرفّه عن أنفسنا بأحداثٍ من ماضينا وذكرياتٍ كانت تجمعنا دون كلّ تلك الهموم؛ غريبٌ كيف أنَّ الأوقات العصيبة قد تصبح ذكرياتٍ عزيزة عندما تفقدُ من كنت تشاركهم بها.

لا أدري إن كانَ هذا مجرّد شعور، أو أنّه حسن ثقة بالله، أو أنّه حقيقة، أو كلّهم، لكنّني أشعر حقًّا أنَّ أبي وأمّي بخير هناك، ورغم أنّي أودّ إعلامهما أنّي بأفضل حال، إلّا أنني، وبعد أن فزتُ بحبّ قدر وكلّ هذه القلوب المجتمعة حولي الّتي تحبّني ولن تفارقني برضاها أبدا، أشعر أنَّ هناك شيء مفقود داخلي؛ هل هناك حقًّا شيء مفقود بداخلي يجبّ عليّ أن أجده؟ أم أنّ الزّمن ببساطة لا يشفي كلّ الجراح؟

- سراج الدّين؟ هل نمت ولو قليلا؟

- لا، كم السّاعة؟

- الثّالثة صباحا

- أنت لم تنم سوى ساعتين، لم استيقظت؟

- أنا القيّم الآن، هل نسيت؟ يجب أن أتجّه للمسجد

- حسنًا يا سيّدْ قيّم، كان ذلك خطئي، لقد نسيت؛ سامحني سيّد قيّم

- اشتقتُ إليكَّ حقًّا...هل تريد الذّهاب معي؟

- هل تسألني إن كنتُ أريد الذّهاب إلى المسجد في وقتٍ يكونُ فيه فارغا ودون ضجّة؟ هل تعرفني على الإطلاق؟

- حسنا..حسنا، ارتدي ملابسك وهيّا

- قدر سترتعبُ عندما تستيقظُ للفجر ولا تجدني

- لا تقلق، سأرسل لابني رسالةً على هاتفه موجّهة لعبد الله أطلبُ منه أن يحضرها معه للمسجد

- مؤسف أنّها نائمة، كانت لتحبّ المسجد لها لوحدها

- وأمّها كذلك

- كيف عرفت؟

- من عبد الله

- آه، وعن ماذا تكلمتما أيضا؟

- عش معي وسأخبرك

- ...سأكتفي بهذا القدر، شكرا

- ظننت ذلك

- هل حكيت لعمّتي كلّ قصصنا أنا وأنت؟

- نعم جميعها، كلّ ليلة قضيتها معك محفورة في رأسي الأشيب هذا

- إذن لابد أنّها تعرف بالضّبط والحرف الواحد أنّك لا تحبّ طبخها وتظنّ أنّه جاف؟

- ماذا؟

- لابد أنّها تعرف أيضا أنّك تظنّ نفسك أمهر منها في أمور المطبخ من أصغر الأشياء إلى أكبرها؟

- هيّا، لا يمكنك لعب تلك البطاقة. لعبناها مع أمّك مُزاحا فانتهت المُزحة بملعقة الطّبخ على رؤوسنا. ما بالك بزوجتي وهي ليست بمزحة..زوجتي حسّاسة في ذلك الموضوع أكثر من أمّك..هيّا، لا تفعل هذا بي، ستتسبّب في طلاقي بالتّأكيد

- حسنا، لكنّك تدين لي

- بماذا؟

- لا أدري، ربّما سأحتاج خدمة لاحقا أو في المستقبل القريب إذا أطال الله أعمارنا بإذنه

- ماذا حصل للتّو؟

- حيلة علّمتني إيّاها قدر. أنا مدين لها، وأنت مدين لي

- أشعر كأنّني أحمق

- صدّقني..أفهم شعورك جيّدا

* * * * * * *

- البارحة طبختم لنا، واليوم سنطبخ لكم

هذه هي العبارة الّتي بدأت بها أمّي يومها؛ ألا تذكر ماذا حصل معي في معركتي السابقة في المطبخ؟ لا زلتُ أتعافى من جروحي السّابقة..أمّي الحبيبة تحاول قتلي..

- لن نسمح بذلك، فأنتم ضيوفنا

- لكنّنا أتينا لنُعينكم لا لنزيد عليكم."قلت أنا"

- تتكلّمين وكأنّك ستطبخين

تُحاول قتلي ثمّ تُحاول إهانتي، لا بأس أمّي، لا بأس..

- لم لا نتقاسم، بين التّنظيف والطّبخ

- أناييس ستنظّف معي

- على الأقل ذلك شيء أجيد القيام به.

- اتفقنا إذًا

- أمّي؟ أين هي قدر؟

- هل تسألين حقًّا؟

- أنا أشتاق إليها

- إنّها تعامل سراج الدّين كأنّه أبوها

الآن ذلك مؤلم؛ إنّها الحقيقة، إنّها تريد أبًا؛ لا جدّا، لا أخًا، لا خالًا، لا عمًّا...فقط أبًا.

- هل أنت مستعدة؟

- للتّنظيف؟ ولدتُّ مستعدة

- دعيني أخرج ابني لأبيه وأبلّغ إخوتي أن لا يدخلوا.

- بأي أرضيّة سنبدأ؟

- بالّتي نستطيع احتلالها

- وكيف نمنعهم من الخطو على الأماكن الّتي ننتهي من تنظيفها؟

- هذا سهل، نضعُ منشفةً أمام الأرضيّات الّتي انتهينا منها.

- ولن يدخلوا ببساطة؟

- نعم

- أظن أنّ كلّ العائلات الكبيرة لديها حقًّا نظامٌ خاصٌّ بها

أظنّني لم أستمتع بالتّنظيف في حياتي كما استمتعت به اليوم، ولم أنمْ في حياتي مثلما نمتُ تلك الليلة؛ كنتُ أشعرُ بأحاسيسَ جدّ متضاربة، بين منزلي وحياتي فيه، وبين منزل سراج الدّين وأيّامي فيه؛ في منزلي، كنّا دائما نحن، نحن فقط وغرفتي، كنتُ أشعر فيه أنَّ مركز العالم هو غرفتي، ولا عائلة غير عائلتي، ولا خوف في منزلي غير خوفي من فقدانهم؛ كان منزلي هو عالمي ولا ضرورة لي لكي أهتم أو أتدخّل في أيّ عالمٍ آخر خارج أسوار بيتي. في منزل سراج الدّين، كان الأمر مجرّد فوضى، ولكنّها كانت فوضى حبّ، فوضى انشغال، فوضى في تفكيري وأعمالي؛ كنّا نخاف إذّا سمعنا صوت مكابح سيّارة، وما إن

نطمئن أن الأولاد بخير، نعود لأعمالنا؛ كان تفكيرنا في فوضى غير الفوضى الّتي بين أيدينا، كنّا مشغولين جدًّا فِكرًا وجسدًا لدرجةِ أنَّ العالم لم يعد موجودا ليحتل مواطن الخوف فينا ويجعلنا نفكّر في الماضي والمستقبل، كانت فوضى تجعلنا نعيش فقط للحاضر فيما بيننا، في مجموعةٍ كبيرةٍ لا تعرفُ مكانَ بعضها؛ إذا حان موعد التّنظيف ننظّف وإذا سمعنا الآذان نصلّي وإذا رأينا المصحف نقرأ وإذا شممنا رائحة الأكل، نتّجه للمطبخ وإذا تكلّم أحدنا، نشارك في الحديث..صحيحٌ لا أحبّ الفوضى، لكن هذه الفوضى بالذّات..أحببتها..

- قدر!اشتقت إليك حبيبتي

فتحتُ لها ذراعيَّ ما إن لمحتها تدخل الغرفة؛ لم ترغب أنْ تنظر في وجوه من كنَّ في الغرفة..لم تتعود عليهن بعد. ركضتْ نحوي بنقابها المتدلّي وارتمت في حضني واختبأت فيه. كان ذلك ولا يزال ودوما سيكون، أجمل شعور. لم يخرج منها سوى صوت رقيق قالت به:

- السلام عليكم ورحمة الله

- وعليكم السلام ورحمة الله. -رددن جميعا عليها وهنّ مبتسمات لها-

- هكذا أنتِ منذ أن أتيت، إمّا مختبئةً في صدر سراج الدّين أو مختبئة في حضن أمّك. -قالت زوجة عبد الغني-

- انتظري حتّى تتعودي عليّ..سأجعل بشرتك حمراء من القبلات. - قالت إحدى بناتها-

- لن أترك لها بشرةً لتحمرّ؛ سآكلها كلّها -قالت أخرى-

- لن يأكل أحد ابنتي غيري أنا -قلت لهم-

- وأنا؟ -سألت أمّي

- لقد حظيت بفرصتك، لماذا لم تأكليني عندما كنتُ صغيرة؟

- وهل تركك أبوك لوحدك ولو للحظة لكي آكلك؟

- لقد كنت طفلة بدينة..كنت لأكفي كليكما

كانت تلك أيّامي ولياليَ معهن؛ الشيء الوحيد الّذي لم أستطع فعلهُ هو الخروج معهنّ لشراء حاجيات العرس، مهما كان معنى ذلك؛ ليس كأنّني لم أستطع، بل لم أُرد ذلك؛ لست من نوع الفتيات اللواتي يطلبن الكثير؛ سجّادة، مُصحف، كتاب، سقفٌ يجتمعُ تحته من أحب، ومن وقت لآخر نزهة على الأقدام ليلا عندما تخفّ الحركة ويقلّ النّاس؛ لم أهتمّ بالملابس فنقابي يكفيني، ولا بالموضة، لكنّني سأرتدي كلّ ما يحلو لي داخل منزل زوجي، لزوجي إن رزقني الله به وبحبّه؛ لا يهمّني

إعجاب الناس بي ولا بمظهري، فأنا أريد حب الله، وإن سعيت لحب الله فلن يسعى لحبّي إلّا من يحبّه.

هناك كثيرٌ من التّعقيدات في الحياة الّتي لا يد لنا فيها نتركها لله، فلم نعقدّ الأشياء الّتي لنا يدٌ فيها وهي أبسط بكثير ممّا نعتقد؟

الفصل الثاني عشر

ذهبتُ للصّلاة في المسجد مع قدر؛ رأيتُ لأوّل مرّة عبد الغني كقيّم المسجد، سبحان الله مغير الأحوال؛ كيف التقيت به أوّل مرّة وكيف هو الآن، بعد الصّلاة تركت عبد الله وعبد الغني مع بعضهما، كانا قد أصبحا كأنّهما أصدقاء طفولة، وعدت للسّطح مع الصّغيرة أشاهدها تلعب مع قطّتها وتطعمها وتكلّمها.

- لا يا خَلق، توقّفي

- لا تخافي يا قطّة، خَلق مؤدبة ولن تؤذيك

- توقّفوا..توقّفوا، الأكل يكفي للجميع

- أنا لن أنظّف هذه الفوضى!

- خَلق..إذا فعلتِ هذا مجدّدا فلن آخذكِ معي

- أنتَ تحتاجُ للاستحمام أكثر من زبائن جدّي

ما إنْ سَمِعتْ قدر خُطواتٍ تصعدُ إلينا حتّى تخلَّتْ عن كلّ شيء وركضت نحوي بقوّة تحتضنني وتخفي وجهها في صدري من

جديد، أظنُّ أنَّ ذلك أراحني أكثر ممّا أراحها؛ ابتسمتُ على الفور واحتضنتها بقوّة أكبر؛ كان الصّاعد عبد الغني يحمل بيده هاتفه النّقال يتكلّم مع شخص ما؛ ما أن رأى قدر على تلك الحال حتّى ابتسم ابتسامة برقتْ بسببها عيناه.

* * * * * * *

كنتُ مع الفتيات نتحدث؛ أصبحنا لا نُفارق بعضنا؛ تجاوزنا مرحلة إكرام الضّيف، ثمّ مرحلة الصّداقة، وكنّا في مرحلة الأخوّة؛ جاءني الولدُ الظّريف وأخبرني أنَّ أبي يحتاجني في أمر ما، وهو ينتظرني أمام الباب. لبستُ نقابي بسرعة وذهبت، ليس لأنّني خفتُ على قدر، بل لم أفكر أنّها في خطرٍ على الإطلاق، ذهبتُ بسرعةٍ لأنّني كنتُ سعيدة جدًّا لدرجةِ أنّني اشتقت إليه وأردتُ أن أشاركه سعادتي؛ كان يحمل هاتفًا نقّالا بيده، أبي لا يمتلك واحدا، هو لا يعرف حتّى كيفية استخدامه!

- من أين لك الهاتف يا باشا؟ -غمزتُ له بضحكة خفيفة فردّها لي أقوى-

- من أحد أبناء عبد الغني

- أنت لا تفكر في مشورتي لشرائه، صحيح؟ أنت تعرف أنَّ عِلمي بالهواتف لا يزيد عن علمي بتلك الـ...الأدوات أو الأجهزة الّتي تستعملها في صالتك -دائما ما كان يَضحك لجهلي بتلك...الأشياء-

- رضي الله عنك يا ابنتي؛ لا، أريد الحديث معك في موضوع ما

- خيرًا أبي؟

- خيرًا إن شاء الله ابنتي..خير

* * * * * * *

- ابني سراج الدين، لقد قرّرنا أنا وعبد الله أن نقرِّب موعد الزّفاف بما أنّكم جئتم لأجله

- جميل، أنا متأكّدٌ أن هذا سَرَّ عبد الله كثيرا

- نعم، كمّا أنّني فكرت بأمر آخر وإن كانت لي معزَّة في قلبك فلن ترفضه لي

- طبعا، أطلب يا سيّد قيّم

- سنُقيم زفافين؛ زفاف ابنتي..وزفافك أنت ابني

- هل آذيتَ رأسك أم ماذا؟ لقد تكلمنا تلك الليلة وأذكرُ قولي لك أنّني أحمد الله لأنّ زواجي ليس قريبا

- نعم، أذكر، ثمّ فكرتُ بالأمر وقلت لنفسي لمَا لا يجبُ عليك المعاناة مثلي أيضا؟

- أقدّر اهتمامك..هل هذا انتقام من نوع ما؟

- لا، لكن يمكنني الاستمتاع به ما دمت أستطيع

- إذن أنت جادٌّ تماما؟

- نعم

فكَّرتُ قليلا

- لا زلت أرجّحُ فكرة أنّك ضربت رأسك

- أنا بخير، أفضل من ذلك والحمد لله

- بمن؟

- هناك فتاة صالحة تحتاجُ أن تُستر

- مَن؟

- لا يهم

- تُستر من ماذا؟

- لقد تعرّضت لحادث مؤسف

- وهو؟

أشار لي برأسه لقدر الّتي زاد ضغطها عليَّ لمّا سمعت كلمة الزّواج؛ تلك الصّغيرة تعرف أكثر ممّا ينبغي؛ لَمّا كنتُ في مثل عمرها...من أخدع؟ أنا لم أكن أعرف شيئا لما كنت بِسنِّها؛ همستُ لها أن تذهب وتلعب بالقطط بعد أن نزل عبد الغني ثلاث درجاتٍ ليختفي عن مدى نظرها، لكنّها لم تُرد تركي، وعدتُها من جديد أنّني لن أغادرها أبدا وقبَّلتُها فذهبت، ثمَّ وقفتُ أكمل حديثي مع عبد الغني أمام باب السّطح.

- لقد تعرّضت للاغتصاب، ونتج عن تلك الحادثة المؤسفة حَمْل..منذ ذلك الحين وكلام النّاس يلاحقها وأصبحوا يؤذونها بأقبح الكلمات والصّفات..لم أفكّر في غيرك ليسترها وأبوها معي الآن على الهاتف

- ليس لديّ منزلٌ ولا عملٌ بمرتّب جيّد

- عيبٌ عليك هذا الكلام..لديك منزلين وعملين إن شئت

- أعلم..لم أقصد هذا..

- الرّازق الله، وعبد الله مصرّ أن تعيش معه في بيته

- حتّى عبد الله وسط هذا؟

- نعم، لا يريدك أن تبتعد عن قدر

- لن ينفع هذا عمّي

- لماذا؟

- لأنّها لن تقبل الزّواج بي

- وهل أنت مجنون؟ لماذا تقول هذا؟

- لأنّني..عقيم

- هذا جديد عليّ، منذ متى؟

- منذ أن كنت صغيرا؛ سرق لي أحد المتنمّرين من الجيران كرتي، عندما حاولت استردادها، أشبعني ضربا في كلّ مكان حتّى أغمي علي

- ما مشكلة العالم معك؟! لماذا لم تخبرني عن هذا من قبل؟

- هذا حقا ليس النّوع من المواضيع الّتي تطرح نفسها على طاولة الأكل؛ بالإضافة، من كان يدري أنّك أنت من سيزوجني مستقبلا

* * * * * * *

- ابنتي..هناك من يريد الزّواج بك

- ماذا؟! -تجمَّدتُ في مكاني..كنتُ أحس بالحرارة والخجل والخوف، كلّهم في مجرى دمي-

- أعلم أنَّ هذا مفاجئ، ولكنّه صحيح

- هل يعلم أنَّ لديَّ ابنة؟

- نعم

- هل يعلم بالحادثة

- لقد علم للتّو

- ماذا؟ -استشعرَ توتّري وقلّة فهمي للأمور، منذ أن كنت بين عالمين، أصبحت بين ثلاثة، فاحتضنني-

- اهدئي..اهدئي، أنا معك في هذا، وأمّك كذلك، ودوما سنكون

- كيف حصل هذا؟

- قدّر الله ما شاء فعل؛ وصيّةُ على الهاتف الآن يريد جوابك، لكن قبل أن توافقي أو ترفضي يجب عليك أن تعرفي بضعة أشياء عنه

-ما هي؟

- قبل أن توافقي، اِعلمي أنّه عقيم، وقبل أن ترفضي، اِعلمي أنّه ذو خُلُقٍ عظيم

- لا أريد الابتعاد عنكَ وأمّي

- لن تبتعدي عنّا..سنكون هنا دوما لأجلك

- وقدر، ماذا إن لم تحبه؟ وسراج الدّين؟ لن تريد الابتعاد عنه

- سراج الدّين لن يذهب إلى أيّ مكان أيضا، ابنتي دعيني أنا أقلق بشأن كلّ هذا، فتلك هي مهمّتي إلى يوم مماتي، الآن، فكّري فقط في مصلحتك، ما رأيك؟

- الرأي رأيك أبي، هل تعلم أمّي؟

- لقد كلّمتها قبلك..هي موافقة ومتحمّسة للموضوع

- وهل أنت موافق؟

- نعم..لكنّني لنْ أُرغمك على شيء..هي حياتك، ونصف دينك..مُوافقتك هي كلّ شيء..ما هو جوابك؟

- نفس جوابك، إن كنتَ أنت راض فأنا راضية

ابتسمَ وقبَّلني على رأسي

- رضيّ الله عنك ابنتي، سيكون لديَّ مفاجأة لك

* * * * * * *

- هل ستزوّجني في عرس ابنتك حقا؟

- نعم..لن يسعدني أكثر من ذلك

- ولم يُمانع عبد الله؟

- بل هو سعيد بالفكرة وذهب ليخبر عائلته

- ما هذا الّذي يحصل؟ لا أفهم شيئا، ماذا إن لم تُحبَّ قدر زوجتي أو الطفل الّذي معها، ماذا إن هما لم يحبّانها أو كان الطّفل لئيما معها، أنت تعلم أنّني سأختار قدر عليهما دون تفكير ثانٍ

- دعني أنا أهتم بذلك، فقط أخبرني بإجابتك

- أخبرني عن الفتاة

- شابة في مقتبل العمر، جميلة..

- لا لا، أقصد أخلاقها؛ قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم <إنّما الدّنيا متاع وخير متاعها المرأة الصّالحة>

- عليه الصّلاة والسّلام؛ رضيَ الله عنك وعن والديك ابني؛ هي صالحة، ذات حياءٍ شديد، تصلّي خمسها، وتصوم شهرها وتقوم ليلها وتحفظ القرآن وحتّى إنّها تقرأ الكتب، ألا تحبّ الكتب؟ فقط قل إجابتك ولا تخف

- أَرْضَى وأمري لله..

الخاتمة لبداية جديدة

- بارك الله فيك عمّي. لقد منحتني عملا، وأكلا، وبيتا، وستمنحني ابنتك وقدر..خجلي منك شديد

- لا يا ابني، أنا من سيخجل، ارفع رأسك، لقد منحتني أكثر ممّا منحتك بكثير؛ لا يوجد في الدّنيا من يخاف على فتاة أكثر من أبيها، ولا أكبر خوف لرجل من خوفه على عائلته. أنا كبير في السّن، ولا أخاف الموت، بل أخاف ما سيحدث لعائلتي بعد موتي، أخاف أن يدفعوا ثمن أخطائي وقراراتي الخاطئة في الحياة...وأنت يا ابني آمنت خوفي؛ لأوّل مرّة منذ أن، اغتصبت قرّة عيني، أشعر بالرّاحة، أستطيع أن أنام، أشعر براحة البال، وهذا كلّ ما يتمنّاه العبد في هذه الدنيا الفانية، بارك الله فيك أنت يا ابني..

* * * *

لقد تساءلت قبلا إن كان هناك أحد قد شعر بهذا النوع من الحبّ تّجاه أحدٍ مثل ما أشعر به أنا تّجاه قَدر؛ تبين أنَّ هناك من شعر به، الأبوّة، ولم أكن لأشعر به لولا قضاء الله وتقديره وتخطيطه لي.

أنابيس أجمل فتاةٍ لمحتها عيناي. منذ أن رأيتها، علمت أنّني سأحمد الله كلّ يوم في حياتي لأجلها ولن يكفي حمدي له أبدا، وأفضل ما في الأمر، هو قولها لي في كلّ مرّة توقظني فيها للصلاة "يدي بيدك للجنة" بأجمل صوت طفوليّ بريء. أحببتها بشدّة وكان والداي ليحبّانها أكثر من حبّي لها، هذا مؤكد، ولكنّني أعلم أنّهما سيريانها وستراهما عن قريب؛ كلّ ما في الأمر هو حسن ظنّ بالله.

قدر لم تفارقني من يومها لحظة. لا يمكنني أن أصف بالكلمات سعادتها عندما علمت أنّني سأكون أباها؛ لا يمكنني أن أصف سعادتها عندما تقفز في السّرير بيني وبين أمّها، ونحن نتناوب على تقبيلها وعضّها واللعب معها، أو مشاهدتها تنام بينما نتشارك حكايات الماضي ونتوه في أعين بعضنا البعض.

أنا سعيد جدًّا، بل أكثر من ذلك، أنا في نعيم الله. مع أنابيس وقدر بجنبي، حتى تعب "الطاعة" أصبح نعيما أتوق إليه كلّما حان وقته.

لم نحتمل فراق عائلة عبد الغني؛ شاورنا عبد الله، نسيبي، بفكرة بيع المنزل والانتقال بجوار عبد الغني، ثمّ فتح صالة هناك...مع الوقت فعلنا. جعلنا للصّالة أيّاما للنّساء تعمل فيها أنابيس،وإن كانت مشغولة بآلات الخياطة في المنزل، تعمل بنات عمّي عبد الغني في الصّالة؛ لم

نكن يوما أكثر خوفا من نسائنا، أقصد لم نكن يوما أكثر سعادة، أسأل الله أن تدوم.

حاولنا إدخال عبد الغني ليتمرن في الصّالة، لعلّ وعسى أن تختفي معدته وينضمّ لفريق الرّجال لقلّة عددنا، لكن صدقت زوجته، حبّه للطعام يسبق كلّ شيء، لا زلنا نحاول رغم ذلك؛ أبناؤه، الّذين أصبحوا أصدقائي وإخوتي، يحاولون معه أيضا، لكنّنا انتهينا بحبّ طعامه أكثر ممّا هو أحبّ التمرين؛ ذلك الرجل يعرف حقا كيفية الطبخ..

بنات عبد الغني قرّرن ارتداء الحجاب الشّرعي، كلّهن في وقت واحد، حتى أنّنا احتفلنا بذلك نوعا ما؛ أصبحن صديقات أناييس المقربات، كلهن بالإضافة لفتاة اسمها "إيناس" تزورنا من وقت لآخر؛ لا أعرف قصّتها بعد، لكنّها فتاة منقّبة مثل زوجتي وذات خُلق وحياء حسن أيضا.

لا أقول إنّ الحياة كاملة، فدائما ما ستكون هناك صعوبات وخسائر؛ ما دمنا بجنب الله، بعيدا عن الحرام وكلّ يوم نحاول أن نكون أقرب إليه، فسنطمئن دوما أنَّ ما يحدث لنا هو "قدر" الله لنا، وسنرضى به ونصبر عليه. سنمرّ بالعاصفة مهما كبرت واشتدت، لأنّه في رأيي، هناك "قدر الله" وهناك "القرارات الخاطئة". قدر الله بلاء، وقراراتنا الخاطئة هي ما نقوم به بعيدا عن رضا الرّحمان، أو بسبب غبائنا أحيانا،

كالثّقة فيمن لا تجب الثّقة فيهم، ذلك رأيي؛ ما دمنا كلّنا بجنب الله، نسعى لرضاه، نستغفر عند الخطأ، ونتوب عند الذنب، وحتّى نبتسم عند الشّدّة، وندعو بالخير لبعضنا في الخفاء، فلا شيء يستطيع كسرنا، ولا مخلوق يستطيع الوقوف بيننا. فلم نخاف الخلق ونحن بجنب الخالق؟ ومهما نسيت أو سهوت عن رأيي الخاص، فإنَّ حديث رسول الله عليه الصّلاة والسّلام سيبقى دائما صوب عيني يذكّرني ويريح نفسي ويطمئن قلبي:

"يا غلام، إنّي أعلّمك كلمات؛ احفظ الله يحفظك؛ احفظ الله تجده تّجاهك. إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله؛ واعلم أنّ الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك؛ ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف."

- صلى الله عليه وسلم

–

الحمد لله

* * * * * * *

لطالما تمنّيت شابا صالحا يُعينني على طاعة الله، لكن بعد ما حدث لي، كنت خائفة جدًّا من زيْف العباد وضعف إيمانهم وحتّى نفاقهم؛ عَلِم الله بخوفي، فحماني أولا من خاطب أراد خطبتي لا خير فيه لمثلي، ثمّ رزقني الله ثانيا بزوج حتى قبل أن يصبح زوجي؛ رأيت أفعاله قبل أن أسمع أقواله؛ إيمانه وأخلاقه، حبّه للغير وللخير، أمانته وصدقه، عطفه وحنانه وطيبته، حتّى أنّني عرفت رأي النّاس الّتي تعرفه فيه، كلّ هذا رحمةً من ربي لكي لا أخاف منه، لكي أتيقّن من أنّه حقًّا الشّاب الصّالح الّذي يدّعيه. لم يكن هناك داع لا للخوف منه أو الشّك فيه، عرفت كلّ ذلك عن غير قصد منّي، بقصد من ربي لكي يطمئنني به لأنّه يعرف ما في قلبي، لكي يُطمئنني بأنّه أعدَّهُ لي من قبل حتّى أن أولد، ورزقني الله بابنة صالحة لي وله،أَحبَّها حتّى قبل أن تصبح ابنته وأبقته صابرا وأعطته هدفا في حياته لكي يبقى ولا يرحل عن منزلنا، وأَحبَّته كفاية لتعطي الفكرة لأبي وعبد الغني بتزويجنا. قدَّر الله ما شاء فعل. كلماتي تعجز عن التّعبير، والحمد لله على حسن التّدبير.

نقوم الليل معًا، نصلّي معًا، نحفظ القرآن والأحاديث معًا، نقرأ الكتب معا..لأكون صادقة، هو يقرأ لي وأنام على صوته، أكتب له ويكتب لي، نتنزّه على الأقدام ليلا، نقوم بالمشاريع الخيرية بنيّة الصّدقة على عائلتنا كلّها وكلّ من أحبّنا، ننشر الخير أينما كنّا، ولو بالابتسامة، نطبخ معا، وأحيانا يطبخ لي لأنّ عبد الغني علّمه القليل من حيل

المطبخ؛ لا نطبخ كثيرا لأنَّ مقابل منزلنا مطعم يهدينا الأكل بالمجان، لكنَّ زوجي يحب أن يطبخ أحيانا وأضطر أن أجرّ قدمي معه لساحة المطبخ لكي أراه يحارب، وأساعده قليلا في المعدات، أنا أحاول أن أتعلّم بدوري، لذا..صبرا علي.

قدر، ماذا أقول عنها؟...فقط عندما أراها بين ذراعي أبيها ليلا فوق السّرير تلعبُ بشعيرات يده بينما هو يرتّل القرآن، أرى أنَّ عالمها قد اكتمل..وعالمي أيضا، فأنضم إليها مداعبةً شعيرات رأسه وأراقبها إلى أن تغطّ في نوم عميق أو أنا قبلها، وذلك الحلم البسيط الّذي بدا مستحيلا، لكنّ الله على كلّ شيء قدير، عندما أراه يمضي بها ليصلّيا في المسجد، هو بقميصه الأبيض وهي تمسك يده وتقفز بنقابها الأسود تلوّح لي كلّما تستدير ناحيتي، هو حقًّا أجمل من الحلم نفسه، أنا فقط أحمد الله إلى أن يبلغ الحمد منتهاه.

بالإضافة إلى ميزة الطبخ، زوجي الحبيب يُعينني على غسل الأواني وتنظيف الملابس وحتّى الأرضية، يُسعدني فقط القول بأنّه ملكي، ملك حياتي، هو كتاب لا يحق لغيري قراءته، ملكي وحدي، يعني لا مكان لثانية، ولا ثالثة ولا رابعة، للتوضيح فقط.

* * * * * * *

- هل أنت سعيدة؟

- ممم ربّما..

- ماذا؟! ماذا تقصدين؟

- كنت لأسعد ببعض الحلوى أو الشوكولاتة..

- ما الّذي حصلَ لعلبة الشوكولاتة الّتي أحضرتها لك قبل ساعتين؟؟!

- ممم اختفت..

- وكيس الحلوى؟

- اختفى أيضا

- حقًّا؟؟؟!!!

- إنّها حلوى وشوكولاتة، هل أسألك لماذا تتمرّن من جديد وأنت قد تمرّنت منذ ساعتين؟ لا، أنا لا أفعل

- أمري لله؛ ارتدي ملابسك ولنخرج نبحث عن محلّ مفتوح في هذه السّاعة المتأخرة

- حــــــــاضر

- سعيدة الآن؟

- ممم ربّما..

- ماذا الآن؟

- هل تعدني بأن لا تغضب؟

- وهل فعلت من قبل؟

- لا، ولكنّني لم أكسر الثرايا من قبل

- مـاذا؟ كيف حصل هذا؟؟

- لست متأكّدة ممّا كنت أفعله بالمكنسة، ولكن الأمر حصل، سأخبر قدر أن ترتدي ملابسها بسرعة لنخرج

- هل تعتقدين أنّنا سنأخذك أنا وقدر لشراء الحلوى والشوكولاتة بعد أن أخبرتني للتّو أنّك قد كسرت الثرايا؟

- لقد كان حادثا ولقد وعدتَّ أن لا تغضب

- لم أفعل، ولست غاضبا..أنا فقط غيّرت رأيي

- لا يمكنك أن تفعل هذا..هذا ليس عدلا

- لا تعطيني تلك النظرة الحزينة، هيا لا تفعلي ذلك، تعرفين أنّني لا أقاومها

-):'

- سأفقد عقلي قبل شعري وأنا معك..حسنا...حسنا، سأنتظرك بجانب الباب

- يـاي!!! أحبّك..أحبّك..أحبّك...

- لنرى أين سيوصلني حبّك

...ليست النهاية، ولن تكون أبدا.